



د. نعيم عليّة
رواية
المرآة والمصباح

د. نعيم عطية

المرآة والمصباح

« رواية »

١٩٦٦ - ١٩٦٧

إهداء

إلى الفنان الراحل رمسيس يونان

أهدى هذا العمل

تحية وفاء وتقدير .

الخطر

كل من يعتبر أن الفن مجرد تسجيل ،

كل من لا يؤمن بأهمية الخيال كغذاءٍ روحي ، وكعامل حيوي في عملية
الخلق الأدبي ،

أرجو ألا يقرب هذا العمل .

— أ —

- دخل الأب صانحها هادرا :
— الدماء ! الدماء من جديد ! اللعنة عليكم ، كلـكم ، ياهن في هذا البيت !
التفت إلى ابنته :
— أنت يا ولد ، أغرب عن وجهي ! أغرب !
ثم استدار إلى ابنته :
— وأنت ، أيتها الفتاة —
سألته مرآةشة الصوت :
— أنا . . يا أبي ؟
— ومن غيرك بقي في هذا البيت ؟
ارتفع صوته :
— من ؟ !
ثم انخفض كوجه اندفعت إلى ضنخة وآنسرت عليها :
— ماتت أمك على فراش المرض . وأختك بذات الداء . أوه ، الجميع
يشيرون أعصابي !
وقالت له الابنة شاكية :
— ليكنني أروع البيت ، يا أبي ، منذ أن توفيت أمي .
زد عليها الأب بازدياء :
— البيت كله ! هيه ؟ ! ومن في هذا البيت سوى هذا الأخ الـعـجـف . .

ضحك بشدة . ثم استلرد يقول :
 — كأنه جواد أحاطته العاصفة بأكوام الرمال ؟
 قالت له مصححة :
 — وأنت ، يا أبي —
 قاطعها الأب بحدة :
 — لست بحاجة إلى من يخدمني . فاهمة ؟ لم أعد من أهل هذه الأرض .
 أخفت صوته :
 — انقلبات من هموم الأرض وأدراها .
 ثم علا صوته :
 — شكرا وحدها !
 أخفت صوته من جديد :
 — وجدت خلاصى .
 زاد صوته خفوتا كما لو كان لا يريد أن يسمعه شخص غريب :
 — الملائكة أنزل لخدمتى .
 تلفت حوله .
 تسال ضوء القمر عاترا من خلف الستائر ، واستقر كغبار متعب في
 رقع دائرية حول الأرض .
 ثم صاح في ابنه بحق :
 — هيه ، أنت يامؤمن ، ألا زلت هنا ؟ . . مصيرك جهنم ، وبئس المصير ،
 يافقى !
 ضحك الأب ضحكة هستيرية :

- ألا زلت تزككب الصغار ؟
فهم استطردوا بشمزاز :
— الحياة إنا . إنا . يا ولد . فلا تملأه ماء قدرا .
رد عليه مؤمن باكيا مستنكرا :
— أنا ، يا أبي ؟ أنا ؟ أنا أصل دائما ، كما أمرتني .
صوب الأب نظراته الثاقبة ، وقال له بلهجة المحقق الخبيث :
— عندما فتحت الصندوق الذهبي ، ماذا وجدت ؟
صاح فيه الأب بغتة :
— لا تكذب !
أخفض صوته ، وسأله مرة أخرى :
— هيه ، ماذا وجدت ؟
أجابه مؤمن بخوف وبراعة :
— ضفدعة عرجاء . .
ابتلع لعابه ، ومضى قائلا :
— قفزت منه !
ضحك الأب بانتصار :
— أرايت ؟ عسى أن يُغفر لك ، يا ولد . العذاب شيء مهول .
صمت برهة ، ثم استطرد قائلا :
— منذ أن ولدت وأنت لاتعجبني . متى ولدت ، يافتي ، هيه ؟
دخل السرور قلب مؤمن . انفرجت أساريره :
— عيد ميلادي الشهر القادم ، يا بني .

— غيبته الله عليك . أين مكانك في الأبدية ، هيه ؟ أتعرف ؟

هو الأب رأسه ، وقال :

— الأفضل ألا تكون قد ولدت .

تصاعد مدير الأمواج المتكسرة عند الشاطئ ، خافتا في صوت رتيب متواصل من أسفل عند الساحل البعيد .

اندفع مؤمن يقول مسترحما :

— لم أقترف ذنبا ، يا أبي . لم أغمز بالعين . أقسم لك اني لم أقترف ذنبا . لم أكدر أحدا . لم أعرف مالا يجب أن يعرف . لم أكن فظا . لم أمتدح نفسي قط .

صرخ الأب بجهنون :

— خستت اكي تكون إنسانا لا بد أن تقتل . كي تكون إنسانا لا بد أن تقتل . قاتل أو مقتول أنت .

مضى مؤمن في استرحامه :

— لم أكن فظا . لم أكدر أحدا .

نظر إليه الأب باحتقار :

— ولد كافر شرير . أقول لك . سامع ؟

أجابه مؤمن بصوت يرتعش خوفا :

— سامع ، يا أبي سامع !

ضاعت عينا الأب . امتلأت غموضا . قال بصوت كفهيج الاعمى :

— وإلا سيقطعون جسدك إربا إربا .

مد الأب ذراعه نحو وجه ابنه ، وتوترت أصابعه . بدت أظافره

صفراء ، وقد علقت بها الأوساخ :

— سيدهم أن هياك .

ساول الإطباق على عنق ابنته :

— ويدقون عنقك .

راوغه مؤمن لاهثا :

— هكذا !

أتى الأب بحركة عنيفة تدل على دق العنق .

كررها بشهوة وتلذذ :

— هكذا !

نخر الابن راحته على الأرض ، مائلا إلى الوراء في ظهر ، رافعا

ذراعيه ، مدافعا بها عن عنقه وعينييه .

تراجع الأب مبتعدا عنه خطواتين .

أشار إلى بطنه قائلا :

— وينزعون أحشائك .

ثم طوح بذراعه فوق رأسه ملقيا بشيء وهمي :

— ويلقون بها إلى النار .

تهدج صدره :

— الجميع شيء مريع ، يا ولد !

صرخ في ابنته ملوحا بقبضتيه :

— سامع ؟ !

ارتعد مؤمن خوفا :

— سامع ، يا أبي ! سامع !

عاد الأب إلى هدوءه . التفت إلى ابنته :
— وأنت يا نوار ، أيتها البنت الملعونة ، أقول لك إنى خارج ، وإن
أعود للغدا .

ثم صاح فى وجهها :
— فاهمة ؟

ثم قال لها فى هدوء :
— سأعود ليلا ، عليك أن تظلى ساهرة . أوقدى القنديل ، فى انتظارى .
أوقدى القنديل كهدراة تنتظر مقدم العريس .

صاح :
— فاهمة ؟

أومأت نوار برأسها . قالت بلهجة مؤكدة :
— أجل يا أبى . كفى ينتظر عودة سيده .

أمت عينا الأب بالرضا :
— تماما .

لوح بأصبعه لها :

— حذار أن يغمض لك جفن .

خرج الأب .

سمعت خطواته تنزل السلم .

ابتعدت على صخر الطريق .

نلاشت .

- خيم الصمت برهة على الغرقة .
انهدت نواردة بارتياح ، كما لو كان قد انزاح عن صدرها كابوس ثقيل .
— آه ، رحل عنا ، أخيراً .
ابتلع مؤمن لعابه . قال مصدقاً :
— ياله من أب !
— لم يكن هكذا عندما كان . . .
ذابت الجملة على لسانها ، واستطرد مؤمن يقول :
— لسكن منذ أن اتنايته اللوثة وهو يعذبنا .
— ويضطهدنا .
— ويشير الرعب في قلوبنا .
هزت نواردة رأسها ، وقالت بإشفاق :
— مسكين . لازالت أمنا تغلق عليه الباب بالمفتاح . كان الله في عونته .
— وفي عوننا أيضاً . ماذبنا نحن إذا كانت أمنا ألقت بالمفتاح في اليم ؟
تصاعد صوت الريح في الخلاء .
التفتت نواردة نحو الباب الذي خرج منه الأب ، وقالت :
— مسكين هذا الرجل . عرافة تنبأت له بأن ابنة سيقتله .
رد مؤمن مستنكراً :
— ابن يقتل أباه ؟ !

قالت نواره ، كما إذا كان الأمر بدهياً :

— وابنك مبعثلك .

أنت الريح عند اصطدامها بزوايا البيت القديم العائية .

مضى مؤمن يقول بصوت مرتجف :

— ماذا جئنا ؟ الرعدة الدفينة تسرى في هروقي ليل نهار . تصورى ،

يا اختاه ، إنى أنفض كل ليلة مذعورا . يخيل إلى أن الغرفة امتلأت

بزبالية الجحيم ، يحدقون إلى ويقهقهون . ثم يغرسون في جنبى وصدرى

حراهم الملتببة .

ب — إنه كابوس ، هون عليك ، يا مؤمن . هون عليك .

اقتربت نواره منه . ابتسمت . أخذت يده ، وقالت :

— تعال نجلس قليلا .

جلسا على الأرض جنباً إلى جنب . خيم الصمت برهة . مسح مؤمن

وجهه بيده ، كما لو كان يزيح من أمامه منظراً كريها .

ضحكت نواره ضحكة رقيقة :

— أتذكر يا مؤمن ، عندما دفعت جردك فوق في صفيحة القمامة ؟

هز مؤمن رأسه :

— كنت صغيراً . طلبت منه قرشا رفض .

صاحت فيه نواره :

ب — يجب أن يتناولك من أجل هذا !

أنفض مؤمن بصره .

التهب صورتَه بالندم والحسرة :

— أمرف من أجل هذا سأُعلنُ !

رفع عينيه إلى أخته :

— وأنت تله كرين جدتنا ؟

صفقت نواراة جذلا :

— أجل ، أجل ، وضعناها في صندوق زجاجي .

— ومع ذلك مضت تبسم لنا في مرقدها ، وتقول : سيأتي دوركم عندما

يضعكم أحفادكم في توابيت . وصحت أنت : لم تعد هناك توابيت .

هذا آخر صندوق زجاجي .

شعب وجه نواراة .

غلبها حزن فجائي .

راحت تستعيد بقايا الذكرى القديمة .

خرجت الكلمات من شفيتها ، كما لو كانت تتمتع بها نائمة :

— ومضت جسدتي ، من خلف الزجاج ، تبسم وهي تقول : إذن ،

سيأتون بجثثكم على قارعة الطريق لينفشها الدجاج .

غرقت نواراة في الصمت برهة . الوجود يدور ، والذكريات تمضى

كسفن بين الموج على حين النعاس في الأعماق يبقى .

تعالى صوت مؤمن في السكون مهيباً ، كن يدلي بنبأ لم يُسمع له مثيل :

— أنعرفن ، يا أختاه ؟ بالأمس رأيت عجوزا يدفن طفلاً ، ويتمم بأدعية

حمقاء . . . والجثمان المرمي يغيب في التراب .

انفجر في ضحك هستيري .

سادت لحظة من السكون الثقيل .

تمطى .

وقال متثابراً :

— ترى ، كم الساعة الآن ؟

أجابت نواره :

— ساعة الجائط تدور بلا عقارب ، وقد حط عليها صفور ميت .

تضايق مؤمن :

— الساعة تنزلق كالشبكة في شباك الصيادين .

قالت نواره بحسرة :

— يا إلهى كم تمر الأيام سريعاً . هافد أصبحنا في السبعين ، ولم نستمتع

بحياتنا .

تثاب مؤمن وتمال :

— متى أخرج من هذه الغرفة ؟ قضبان نوافذها عظام نخرة ، وحيطانها من

اللحم المقوى . بالله متى أخرج ؟!

نهضت نواره .

كانت الغرفة ذات باب واحد ، وعدد لا يحصى من النوافذ ، كما لو كان

قد تجددت على حوائطها نوافذ الدنيا كلها . بعضها عال وبعضها منخفض .

بعضها مستطيل ، وبعضها مربع ، والبعض الآخر في شكل دائرة .

نهضت إلى السلم الخشبي المسند إلى الحائط ، حملته وأسندته إلى الحائط

الخلفى .

صعدت إلى السكوة العليا .

ظلمت جبينها بيدها ، ونظرت إلى بعيد .

مضت برهة .

داعبت الذنبيات خصلات من شعرها الناعم الطويل .

صاحت فرحة :

— مؤمن ، إنه الفجر ! انفض . أشرق السماء ، وما كنت أعتقد أنها
ستشرق !

نفض مؤمن شارد النظرة .

مضت الأخت جذلة :

— بادر بالخروج ، فن يدري كم من يوم سيطلع من جديد ؟
أحكم مؤمن إقفال سترته :

— إني خارج .

التفتت إليه نوازة ، وقالت له كمن تباركه من عليائها :

— نخض في المطر والضباب والعواصف . دع الرياح تذر الرمال في وجهك
وذاذ رذاذ الموج المتطاير على شفتيك .

رفع مؤمن إليها عينيه ، وقال :

— أريد أن أجوس خلال المقابر ، تحت جناح الظلام . أريد أن أدخل
قاعات التعذيب لحظات الحساب . أريد أن أدخل غرف العمليات وأشهر رائحة
المورفين . فإذا ارتعدت وصرخت ودخل قلبى الأمان . أما إذا . . أما إذا . .
تردد عن إكمال جملته ، كمن يخشى بلوغ الحتام .

نزلت إليه نوازة .

أمسكت بذراعه .

وربقت على كتفه مطمئنة :

— اغرق نفسك في الطبيعة . تأمل كيف تتكون البراعم . كيف تفتح
الفرشة جناحيها . شاهد الطبيعة عن كثب . ودع أمنا الرؤوم تضمك
إلى صدرها الشائك حتى تصبح في ثرائها وحركتها ومضائها .

قال مؤمن بحماسة :

— إني راحل . الأشواك على الحدود مثل المخالب ، لكن الخريطة لا زالت
في جيبى . معالمها لم تنظمس ، والسماء ساطعة النجوم ...
تنهد بلهفة :

— وعبير البرققال عبر الأشواك لا يقارم .

صحبت نواره أخاها إلى الباب ، ومضت تسدى له النصيح :

— وإذا تبعك امرأة شعناء الشعر علية ، لا تلق بالآلها . إنها حزينه .

غابت نواره دموعها ، وأردفت بصوت كسير :

— والاسى الذى يمزق قلبها لن يُسمع له أنين .

خرج الاخ .

واصلت نواره كلامها إليه وهو يبتعد :

— امض إلى الصخرة الجراء . لا تصرخ من القيقظ أو من البرد ، ولا حتى

من العطش . لا تشك . كن مثل الموج الذى يقبل الريح والمطر . يقبل

الليل والشمس دون أن يتغير مثل كل ما يلحقه التغير والتاف .

لوحث له مودعة .

أرسلت إليه قبلة على أطراف أصابعها ، وهو يغيب عن أنظارها .

دخلت .

أغلقت الباب من خلفها .
جلست مسندة ظهرها إلى يدها .
استغرقت في الذكريات ، وقد ارتعم على شفيتها طيف ابتسامة .

— ٣ —

ما من أحد يدري كم من الوقت مضى . على أن الاضواء في الغرفة
تفهرت ، فقد انقضى زمن طويل .
جلست نواورة مسندة ذقنها إلى يدها .
المسكب على شعرها ضوء بنفسجي .
كانت تصغي إلى صوتها يهمس إليها في أعماقها . كان يملو ويهبط أحيانا
مثل عصفور الجنة يسبح في الفضاء ، ويلبد الصوت أحيانا مفعما بالكآبة وبروح
خفية ، تخيل إليها أنها ترى مؤمن من بعيد ، فهمست إليه قائلة :
— تخبرنا كثيرا . عندما تعود لن تعرفنا . الأبحار قطعناها ، وغرنا
مكاننا أعمدة . النوافذ سدناها ، فما عدنا ننظر إلى النجوم في السماء
الرضيئة .

دخلت الخادمة المعجوز .

لم تشعر نواورة بها .

هضت مستغرقة في وهما :

— والحديقة . أتذكر الحديقة ؟ عندما تعود لن تعرفها . أرسينا فيها
حوائط تموطننا وأسواراً تخفيها وتحميننا . وما الجدوى من الحديقة ،
وما عدنا نزرع الخضر ، وما عادت البلابل تغرد على أغصاننا ،
ولا الفراشات تخط على زهورنا ، وما عدنا نقوى حتى على استنشاق
نسمة نقية ؟

لم تلبث نواره أن تنبهرت الى وجود حليلة في الغرفة .
 أفاقت من شرورها .
 ابتسمت لها ابتسامة مبتسرة .
 ثم نهضت كما لو كانت قد تذكرت أمرا كانت قد نسيتته .
 مضت إلى النافذة ترافقها الخادمة المعجوز .
 أخذت تسترق منها النظر .
 بعد برهة لمحت في الطريق شيخ رجل كان يروح وييجي . عند السور
 الخارجى قرب البوابة الشرقية .
 أجفلت وعلاها الاضطراب .
 مالت بسرعة الى حليلة ، وأشارت هامسة بصوت مبهوح :
 — ها هو ! أتريه ؟ ! يحوم حول البيت ، يا حليلة ! هو ذا صاحب
 الأحلام قادم !
 مدت الخادمة عنقها ، وشحذت عينيها الكليلتين :
 — أين ، يا سيدتى ؟ خيبة الله على عيني . ما عادتا تبهران .
 أشارت نواره إلى الخارج :
 — هناك ، خلف الأعمدة . ها هو يرفع وجهه نحو نافذتنا .
 ابتعدت نواره عن النافذة بسرعة ، والتصقت بالحائط :
 — أخشى أن يرانى .
 أخفضت ناظرها :
 — انى خجلى .
 قالت لها الخادمة المعجوز :

- هذه الفتى بدل أحراكك ، هيه اظهر لك بمظهر يختلف عن جواهره ،
تأملت نواراة ملياً ، وأردفت :
— تبدين شاحبة منذ أن عرفتني . وغاصت الابتسامة عن شفئك .
باختصار ، خذك . ربما عن غير عمد .
رفعت نواراة راحتها إلى خدها :
— كنت شاحبة ، وعبوساً ، دائماً ، يا حليلة .
قالت الخادمة المعجوز مداعبة :
— هذا شأننا دائماً ، نحن الفتيات . اذكر عندما اصططعني رئيس
الخدم . . .
— لست جميلة ، وتعديت سن الشباب . ماذا كنت تريدني أن أفعل
تحت سقف هذا البيت ؟ أن اكرس حياتي لتربية القطط والبيغاوات ،
ام اجمع طوابع البريد ، ام اقتل وقتي بأشغال الإبرة ؟
اطلت نواراة بحذر من النافذة ، ثم تراجعت بسرعة . التصقت
بالحائط منزعجة :
— ها هو يتجه نحو الباب ، يا حليلة . يبدو انه تغلب على تردده .
ضحكت الخادمة ضحكة قصيرة :
— لم لا يفعل ؟ هل سيجد عروساً مثلك ، يا سيدتي الصغيرة ؟ كم كنت
جميلة وانت تلمعين وتتلوين ساعة موتك .
استبد القلق بنواراة ، واختلط قلقها بالهفة الصبايا الى مقدم العريس :
— اود ان يقفل راجعاً . كيف سيقابل ابى ؟ وماذا سيقول ؟
فرت مبتعدة عن النافذة ، كما لو كانت تريد الاختفاء .

أرسلت الخادمة المعجوز سمعها وقالت لسيديتها :

— صمنا . إني أسمع صوتا .

أطلت من النافذة :

— ثمة شبح .

ألحمت النظر برهة . ثم أقفلت راجعة إلى نواره :

— أخطأنا الظن ليس هو .

اتجهت إليها نواره بكل مشاعرهما :

— أهو مؤمن ؟

— بل أبوك . سيدي قادم .

دهشت نواره :

— كيف لم نره ؟ ربما أتى من الباب الخلفي ؟ !

— هيا ، ياسيديتي الصغيرة ، اصلي من هينئتك قليلا .

اقتربت المعجوز من نواره . رتبت هندامها . وأردفت تقول :

— حتى لا يزعب .

مضت نواره في دهشتها تحدث نفسها :

— عجبا ، كيف لم يانتقيا بالخارج ؟ ربما سيالتقيان على السلم .

— كلا ، كلا . ما أن يرى أباك حتى يتبخر . كل الناس تخشاه . وما أن

تطأ قدمه عتبة البيت حتى يصرخ الدجاج والبطة في الحظيرة صراخا مديدا

مختلطا ، كما لو كان قد خيم عليها ظل صقر بسط جناحيه ، فهل سيرفع فتاك

عينيه في وجهه الجهم ؟

عادت المارانان إلى مكانيهما .

جلست نواردة على الكرسي ، بينما قبعَت الخادمة منكشة عند قدميها ،
مثل كلب أسود يتلصص الدفء .

أحكمت إحاطة شالها الأسود حول وجهها .
دخل الأب ممسكا في يده مصباحا غازيا مضيئا :
وضعه على الأرض .

ترافقت أشباح الموجودين على السقف والحوائط .
التفت إلى ابنته والخادمة :

— طاب مساؤكما .

نهضت المرأتان وجلتني .

وتحركت أشباح الخدم خارج النوافذ في حذر خشية الانفضاح .
كرر الأب تحيته .

— أقول طاب مساؤكما .

ثم سأل :

— ألم يدلف إلى هنا أحد ؟

أجابت الخادمة :

— لم يزرنا أحد سوى القمر . . وأشعته المتسللة .

نخيم الصمت .

وضع الأب يديه وراء ظهره ، ومضى يذرع الغرفة جيئة وذهابا .

زاد وقع قدميه من ثقل الجو الجاثم على الغرفة .

سألت نواردة مترددة :

— هل تريدني في شيء ، يا أبي ؟

توقف الأب عن مشيئه .

ومقها .

ثم ضحك .

— آه ، تسرني فطنتك ، وتعجبني .

رفعت نوارة كتفيها وأخفضتهما ، كما لو كان الأمر طبيعياً جداً :

— أنت أبي . هذا يكفي كي أفهمك .

أمسك بيدها :

— تعالى هنا .

أجلسهما على المقعد .

انكب عليهما محملاً في وجهها .

جثم الصمت برهة .

تسللت الخادمة من الغرفة هاربة في هدوء .

قال الأب لابنته :

— لو نك لا يعجبني . يجب أن نصلح منه . هذه الأنيميا المزمنة يجب أن

نطرد عنها .

ضحك ساخر ، وأردف يقول :

— طالما بدأ الخطأاب يطلبون يدك .

ابتعد عنها ، وبدأ يتأملها :

— امثلا الوجه بالتجاعيد ، وضمرت الوجنتان . انظري كيف ساءت

حالك ؟

أخرج من جيبه منآة وضعها في يدها ، ورفعها إلى وجهها :

بصرى نواردة . وذهبت المرأة من يدها
— آه ، أهي دائماً في جيبك ؟ رهن أمرك ؟
قال الأب لائماً :

— تظنين أن هاتين العيينين وهاتين الوجنتين ملكك أنت وحدك ؟
لأنها ملكي أنا أيضاً .

تراقصت ذبالة المصباح .

لمعت المرأة الملقاة على الأرض .

أسدى الأب نصحه إلى ابنته :

— أخرجى إلى الهواء الطلق . تمشى قليلاً ، وسترين كيف ينصالح حالك .
ثم استدرك قائلاً :

— لكن ، لا ، لا . يكفي أن تقفى في الشرفة ، وتسلشنشقى نسيمات الليل .

اطبق الأب جفنيه ، وملاً بالهواء رأتيه ، ثم تنهد بحسرة :

— آه ، نسيمات الليل !

تمالك نفسه ، وقال :

— هذا يكفي . الخروج الكثير ليس مفيداً ، على أى حال .

— حسبي الوقوف عند النافذة ، يا أبى .

عدل عن نصحه :

— أصبت . الحرص واجب . ليس الشجوب أسوأ من أمور أخرى .

واستطرد يقول :

— ثم ماذا بالخارج ؟ لاشيء ، يا ابنتى . متاحف ، حدائق للحيوان ، مرا كز

تربية نباتات ، أما كن أثرية ، مبنى البلدية ، مطارات ، مرا كز تجارية ،

شركات ، معامل تحاليل طبية ، معارض ، مكاتب ودواوين . أما هنا في البيت ، فكل شيء موجود . هاهو التلفزيون ، عامر بالبركة ، نافذة على العالم . ودحواء ، تأتي إلينا كل أسبوع ، وتصلنا الجرائد يوميا . ما الذي ينقصك بعد ذلك ؟ ربما ستقولين حضور الحفلات الموسيقية والباليه ، لكن ما تفقدينه من عدم حضورها ، على أي حال ، قليل ، ويمكن تعويضه بالقراءة . هاهي المكتبة نملأ الأرفف والدواليب تستطيعين التهامها .
— والرحلات مع الأصدقاء ، يا أبي ؟
تجاهل الرد على ذلك .

تهند :

— طالما رحلت أمك إلى وديان الصمت مبكرا أنا أمك . على أن أغمرك بالحنان الذي حرمت منه بوقاتها .
— ليس ما تغمرني به حنانا . أنت أبي ، وأنا ابنتك .
ضحكت نوازة ضحكة ازدراء .
رفع الأب يده . هم أن يصفعها . أحجم . أنخفض يده .
عاود المشي في الغرفة صامتا . يدها خلف ظهره .
جثمت برهة صمت ثقيل كأنها دهر .
ثم استدار نحو ابنته . تأملها مليا .
أشار إلى المصباح . قال :

— أقسم بهذا المصباح الذي أحمله ، إنني لم أكن انتظر منك هذه المعاملة .
رفع يديه شاكيا :

— لماذا أصبح الجميع ناكرين للجميل ؟ لماذا أصبح الأولاد يعضون

الأيدي الممدودة إليهم بالخنان ؟ أولئك العميان الذين وددت إليهم البصر ،
أولئك المقعدون الذين بعثت الحياة في سيقانهم اليابسة ، أولئك الصم والبكم
الذين وضعت يدي على شفاههم وآذانهم فأعدت لهم نعمة السمع والكلام ،
كل أولئك المتعبدون ، هل يستحقون رحمتي ؟ ها هم يشربون الخمر في
الحانات ، ويعربدون .

تململت أشباح الخدم عند النوافذ ، ومالت رؤوسها تتهامس ، ثم
اختفت .

أخفض الأب يديه .

التفت إلى ابنته متهما ، وغَيَّرَ موضوع الحديث بحفاه :

— نمت إلى هلى أمور شائنة .

حذق إليها .

أخفضت عينيها ، وقالت :

— كل شيء في الخارج شائن ومريب .

— سمعتي أضحت في خطر . اذكرى أنك ابنة محارب قديم ، تغطي
الأوسمة صدره ، ويعرف كيف تطلق القذائف ، وكيف تشعل الحرائق ،
كما تعرفين أنت كيف تطهين الطعام ، وترفين الجوارب . . . لعنة الله على
حرب الذباب . مائة عام راحت هباء . وما أنا أسمع أخبارا تدوى في
أذني . . عنك !

قطب جبينه . صوب إليها نظرة ثاقبة . وأردف يقول في لهجة
صارمة :

— حي له حدود ، يجب أن تعرفي ذلك .

— أين سمعت ما سمعت ؟ هناك ، في الجرائب ؟
انفض الأب :

— نواره ، اشفق على ! سمعتي تتعطم كإباء زجاجي يهوى على الأرض !
ألا ترين المشيب دب في شعري ، ويدي ترتعشان ؟
بن حسنا ، اهدأ يا أبي . اهدأ ، نحن وحدنا .
أجال الأب نظرة ارتياب من حوله :
بن تظنين ذلك .

قالت نواره مهوثة عليه الأمر :

— لم يكن ماقلته بالشئ الجديد ، على أى حال .
تمهد الأب ، وهز رأسه :

— الكفاح شاق . تعرفين أننى أقامر بكل شئ . أليس كذلك ؟

— وأنا لى أن أعرف ماذا تفعل هناك في الجرائب ؟

— ياللهزلة ! كيف لا تعرفين ؟ انك تبحر حينئذ بهذا الكلام . لا يؤلم المرء
شئ قدر تجاهل أهل بيته لجهاده .

مسح الأب جبينه . وأردف موضحاً :

— أريد الجميع ظلالاً لى . إذا انطفأت انطفأوا . . أريد أن أطمّر . أريد

أن أكنس وأنظف . كم تعذبني صورة الإنسان المنفرة !

أغمض الأب جفنيه ، واستطرد يقول كما لو كان يتلو صلاة :

— نحن فرسان الأحلام ، لم يعد للدنيا الأهمية التي كنا نتغنى بها منذ
قرون .

فتح الأب عينيه ، ولوح بقبضته في الهواء :

— هناك عمل ههناهم يجب القيام به . اننى أمثل عالماً بأسره . قويا جديدة ..
ظلمة .

رفع الالب أصبحه مشيرا إلى أعلى ، وقد مالت ذراعه في اندفاعها إلى
الوراء :

— أنا أقف هناك فى الخرائب ، لكنى القوة الدافعة . أنا الذرة والطاقة ..
الضمير اليقظ ، والأذان المرهفتان .. والساعد البتار ..
داخلت صوته رعشة خفيفة :

— أريد أن أرى حطام الدنيا يتطاير أمام عيني .. هذه قاذورات .
بصق على الأرض . مسح شفثيه بكفه . ثم تلفت فى أرجاء الغرفة :
— أن أرى إشلاء هؤلاء المارقين تتناثر من حولي ، وتسقط فى بركة النار
والكبريت . كل واد يمتلىء . كل تل ينخفض ، وتصير الممرجات
مستقيمة ، والشعاب طرقا معبدة .
مضى كما لو كان يحدث نفسه :

— وهل يصمد المشيم أمام المنجل ؟ مستنقع عطن . آسن المياه !
ضحك فى تشف :

— إن تكون الخسارة كبيرة أن تُزلزل هذه المدائن الطينية كلها . استشرى
الفساد والشر . إن أنتن الأشياء وأحقرها تسيطر على الطبيعة ، وتملك
زمامها .

علا صوته ، كما لو كان يعلن قرارا جديداً :

— « والآن ، قد وضعت الفأس على أصل الشجرة ، !
تسال بعض الخدم داخلين فى خفة وهدوء . أعقبهم غيرهم بذات الخفة

والمهارة . لم يفتن إليهم أحد ، فقد كانوا على مثل هذه الأعمال مدربين .
كما إن الأب في سورة انفعاله وحماسته لم يكن لينتبه إلى أشياء من هذا القبيل .
أما نواردة فقد كان لديها من الاحزان والهواجس ما كان يشل منها السمع
والبصر .

تحمشي المتسللون مواضع الضوء . لا ذوا بالاركان والظلال كالجزدان .
ابتلعهم الظلام . وهناك كتموا أنفاسهم ، وظلوا يرقبون كل شيء صامتين
متأهين . لا تبدو عنهم حركة ، ولا تند منهم زفرة ، وكأنهم غير موجودين .
واصل الأب كلامه غير آبه بما يدور حوله . فاضت خراطره ، وما كت
حواسه ، فلم يدري أو يسمع سوى نفسه :

... لكن نحن يجب أن نمضي . نحن بصيص النور في آخر النفق . نحن
انفجار في مستودع للأخشاب . يجب أن نحقق المثل التي نؤمن بها .
ننقيها من الشوائب ، ونحفظها للمستقبل ، للأجيال المقبلة !

كان الأب يؤثر رضا الله على سخط العباد . ذات مرة اشتغل حطابا ،
جمع الحطب يريد أن يبيعه في السوق ، وجاءته امرأة تشتري منه ، فوجدته
يطلب مالا كثيرا لحطبه ، وقبلت أن تشتريه على مريض ، فسألها وهي تنقده
النقود عما تريد أن تفعله بهذا الحطب ، فأجابت بأنها تريد أن توقد به
نارا تقطر عليه خمرآ ، فهاله الأمر . بصق على النقود ، وردها إلى المرأة
العاقر ساخطا ، ورفض أن يبيع . وأصر على الرفض . وتجمع كل من
في السوق ، وبعثوه بالغباء ، لكنهم أكبروا فيه تلك الروح العالية ،
والنظرة المثالية ، والإصرار رغم كل التوسلات .

ومنذ ذلك اليوم هجر الالب تجارة الخطب ، فما كان مثله أن يساعد على
تطهير أم السكياتر . وانصرف إلى كتبه وتجاربه العملية . وبين بواتقه .
وأنايبه وأعشابه وأبحرته قبع لا يريد عرض الدنيا وربحها الوفير . راح
يحاسب نفسه في كل صغيرة وكبيرة . وقاده تفكيره الطاهر إلى معادلة
لو اهتدى إلى حلها لاخترع ماهو في حجم بيضة الرخ لتطهير الوجود من
كل أدرانته ووساخاته . ملكت عليه هذه المعادلة كل وقته وشغلته عن
تفاهات الحياة اليومية . لم يعد يلعب الناس ويرتاد النوادي . إن باع
حفنة من أعشابه المحترقة فبالقليل . لا ينتظر ارتفاعا في الأسعار ، ولا بوارا
في الأسراق . الظروف للطائرة لاتعنيه ، والصعوبات المادية غير المتوقعة
لاتثنيه . وحتى أفعال الأمير لم تسكن ترحله عن موقفه قيد أنملة .

كان مثلا فريدا بين الرجال . من المحال أن يوجد مثله ، رغم أننا نجد
نظراءه يملأون أيامنا ، ويشغلون حياتنا عبر كل الأجيال .

كان غارقاً في أحلامه وأحماضه وبواتقه ، لكن الأحداث أيقظته
وفتحت عينيه على أمور كانت خافية عن باله تجري في الخفاء ، ولا يراها .
أما الليلة فقد راحت الغفوة ، وجاءت الصبوة .

ثاب الالب إلى نفسه . هدأت فورته كما تهدأ كل فورة .

والتفت إلى ابنته :

— أقول لك هذا لتدركي إلى أي حد أنا معرض للهجوم ، وإلى أي حد
أحتاج إلى عونك ، إلى وقوفك في صفى ، إلى جوارى ، خلفى .
أعالي صوت الإبنة مشوباً برنة استهزاء خفية ومكتومة :

— خاف القيم التي تشملها ؟ أنا المخلوقة الضعيفة الخائفة ؟
— يالك من فتاة تبخس حق نفسها . أجل أنت ، تقفين خلفي ، لأن
خصومي سيقتلهم كل فرصة وكل هفوة من جانبنا ، حتى يطعنونا في
الظهر . سيستغلون كل ورقة ، كل نقطة ضعف . سينبشون الماضي .
لوى الالب شفتيه متضايقا ، وأردف ثائرا :

— ومن يخاف من العيوب والزلات ؟
ارتسم الحزن في عيني نواره . وقالت :
— وأنا نقطة ضعفك ، يا أبي ؟
— لم أكن أريد أن أقول ذلك . اعذريني فأنا لأشعر أنني على مايرام
الليلة . هناك شيء يحتمل على عقلي . شيء يضيق خنقه على ويطن في جنبات
رأسي بلا انقطاع ، كما لو كان ألف شيطان يتزاحمون على الدخول من باب
ضيق ، ورغم ذلك فأنا أحس براحة غريبة .
لمت عيناه .

عاد يقول :
— تسيتين فهمي . أفصد أن أحملك . أن أصونك من الشراك التي
قد ترديك فيها عذريتك .
ضحكت نواره بشدة :
— عذرتي ؟

تحولت الضحكة إلى زفرة أنى :
— عذرتي ، يا أبي ؟

هون عليها الأب بلهجة منلحشة :

— لو كنت ارتكبت مغرة في صباك ، فلا يعنى ذلك أن روحك ليست طاهرة .

ثم عاد إلى الموضوع الأصلي بلهجة حازمة ، مثل قائد يجمع شتات جيشه ، ويمسك بالزمام :

— إننا في محنة . علينا أن نواجهها ، وسنجتازها معاً . ها أنا أمد إليك يدي .

دققت نواراة النظر إلى راحتيه ،

مضى يقول لها حق يكسب ثقتها :

— أنا أمان من الهلاك ، نصرة وعق ، خلاص من الخطيئة .

صاحت وهي تنظر إلى اليدين الممدودتين إليها :

— لكنهما مثقوبتان ، يا أبنا !

سحب يديه بسرعة . أخفاهما خلف ظهره ، وأردف يقول بلهجة مطمئنة :

— سأحميك حتى النهاية . يكفي أن تساعدني .

رفعت إليه نظرة عميقة متسائلة :

— ماذا تريد مني ؟ كل ما طلبته نفذته . لم أقل شيئاً لأحد . كل ما أردته هو الستر . الستر . هذا ما أطلبه بين الجدران التي أحتمي بها .

ربت الأب على وجنتيها مشجعاً :

— أنا الذي أختار اللحظة . ثم لا تنسى أن ميراثك عن أمك لا يستهان به .

كل تلك الأقراط والقلائد الزجاجية ، والخلاخيل ، والخرز الملون ...

هز الأب رأسه :

— أنت لا تعرفين الناس، يا عزيزتي . تجلسين طوال النهار هنا في هذا الجحر، فكيف لك أن تعرفي ؟ ألم أقل لك أنك مغمضة العينين غريرة ؟

.. ما الذي يعني أنا من كل ذلك ؟ ليس هذا من شأني . في النهاية لا أرى أنه صلب العزيمة ، عنيد . هل تريد مني شيئا آخر ، يا أبي ؟

— بقي استفسار أخير . أريد قليلا من المعلومات ، بصيصا من النور ، حتى أكون جاهزا ، ولا أجد نفسي غير معد للكلام .

غضت نواراة بصرها :

— ألم أبح لك بكل شيء ، يا أبي ؟ لم تهوى تعذبي ؟

زاد ارتباك الأب ، فلم يكن يعرف كيف ينفذ إلى النقطة التي يريد بها :

— أجل .. لكن .. هناك .. ذلك الشيء .. الصغير الذي لا أفهمه ..

هلا عاودت القصة من جديد ؟

نمكنت نواراة رأسها ، ونظرت إلى يديها المتشابكتين في حجرها .

صمت لحظة .

ثم خرجت الكلمات من فمها بطيئة متثاقلة ، وهي تدلي باعترافها :

— ذات يوم اكتشفت أن هناك من يرقبني ، وأنا أعرف وأغني . عينا ضيقتان حذرتان . تذكر ذلك عدة أيام .

كان الأب يتعذب . ندت منه بضع كلمات تنضح بالمله :

— لماذا ، يابنية ! لماذا !

مضت نواراة :

— لم أعر الموضوع التفاتا أول الأمر ، إلى أن اكتشفت أن عينيك العيين عينا رجل .. شديدا الالتصاق بي .

سكتت نواره برهة :

— توطدت بيننا علاقة —

قاطعها الأب جزعا :

— أية علاقة ، يا نواره ؟ !

مضت نواره بصوت تنزايد بحته ، وبشهوة متزايدة :

— مثلما بين العنق وحبل المشنقة ، مثلما بين المطرقة ورأس المسمار ،
مثلما بين المنشار وكتلة الخشب .

نخيم الصمت .

أسقط في يد الأب .

ضرب كفا بكف ، وقال :

— 'قضى الأمر. ليس أمامنا الآن إلا أن نحارب وظهرونا ملتصقة بالحائط .

استرد ثباته ، وشدد قامته . ربما حتى يخفى هزيمته :

— الأمر طبعى . كان ذلك أول مدار بخلدى ، لمكنك تفهمين ،

ولا شك ، اننى أواجه تحديا كبيرا . أعرف كيف أكله ، وكيف

أتصرف معه . اطعنى . فقط ، فليأت .

أومأت نواره برأسها ، وقالت :

— سيأتى .

التفت الأب إليها بسرعة ، ونظر إليها نظرة ارتياح :

— كيف تعرفين ؟

— مجرد تخمين .

لانت قسبات الأب :

— لا تجزعى . على الأخص ، لا تجزعى .
قالت نواره بنبرات ثقيلة :
— آه ، كم أسبب لك من عناء ، يا أبى .
لم يكن يتوقع منها ذلك ، نظر إليها باهتتان وفرحة :
— تشفقين على ، إذن !
تناول يدها ، وربت عليها برفق :
— تفهميننى . أشكرك . هذا ما كنت أريده .
رفع يدها ، وقبلها بحنان .
أسند خده عليها ، وأغمض عينيه بارتياح وسعادة .
رفرف الصمت برهة .

ظهر عند الباب شاب بدا عليه التردد .
رأته نواره . خفق قلبها بشدة .
اضطربت يداها فى راحة الأب .
فتح عينيه ، كما لو كان قد تلقى صفعة .
سمع خطوات القادم عند عتبة الباب .
التفت .
عرفه .
كان « طالب اليد » .

كان طالب اليد رث الثياب ، حافى القدمين ، يحمل شبكة من شباك
الصيادين على كتفه ، بادی الاهمال فى زينته ، لكن مظهره يبعث على
الاشفاق والحب . شاحب هزيل ، حالم النظرات . عندما تقع العين عليه
لا يكاد المرم يملك نفسه من أن يهتف بأنه مؤمن ، إلا أنه ليس هو على أى
حال ، فرغم ملامحه التى تشبه ملامح مؤمن إلى حد بعيد ، فهو لسبب
أو لآخر ليس مؤمناً .

خطا الشاب بضع خطوات إلى داخل الغرفة .

رأى الأب .

توقف .

أجال فى الحاضرين نظرة بريئة رائعة .

التفت عيناه بعينى نواراة .

ابتسم لها .

صعدت الدماء إلى وجنتيها .

خفضت نظرها فى حياء .

دب النشاط فى صفوف الخدم .

تحركت أشباحهم من مكانهم .

وهمهموا .

لمعت عيونهم وهى تتابع الوافد الغريب ، كومضات برق خاطف فى سماء

ملبدة بالغيوم القاتمة .

تجمعوا خلف الأب ، وحورطوا به في شكل نصف دائرة .
وقف رئيس الخدم خلف الأب ، كما لو كان ظله .
مال عليه ، وهمس في أذنه كلمة تحذير .
قال له الأب :

— اطمئن ، لو سقطت السماء لسندتها بذراعى هذا ، ولو مادت الأرض
من تحت أثبتتها بقدمي ، هكذا .
دق الأرض بكعبه عدة دقات ،
وبدأ التحقيق .

قال الأب :

— أخبرتنا ابنتي أنك طالب يدها .

قال طالب اليد :

— لم أتمالك نفسي ، أحببتها . لم أقدر على الابتعاد عنها . طويت شبكتي ،
وثبتها إلى هنا .

تمالت مهمات خافته من الخدم .

أجال طالب اليد بصره في جموعهم ، وقال ببساطة :

— هذا كل ما في الأمر .

سأله الأب :

— أتعرف شيئاً عنها أيا الصياد ؟ هل أخبرك أحد عن سبتها ؟

— وهل أخبرني البحر عن سنه ؟ هل أخبرتني السحب عن أعمارها ؟

— حسنا ، ها أنا أقول لك . أنها على أعتاب . . .

اطرقت نواردة إلى الأرض في خجل .

لحمها الآب ، فنتكص عن ذكر سنها .
استطرد قائلا :

— حسنا . وكانت خلال السنوات الخمس الأخيرة . . .
تراجع عن اكمال عبارته، وقال :

— مرت أعوامها عقيمة .

قال طالب اليد بلهجة مغلظة :

— اعرف أنها لا تحبني . . وربما لن يمكنها أن تحب ، لسكنى أطالب الكثير
لو طابت أن تحبني .

تعالى مهممات الخدم .

لم يأبه الشاب بها ، واسترسل قائلا :

— لم أطمع في أن يحبني أحد قط .

لانت صرامة الآب برهة عابرة ، وقال للفتى متنهداً :

— اعرف معنى ذلك جيداً . . ذات مرة . . انكسر قلبي . . ذات مرة
منذ أمد بعيد . . تلمع في مخيلتي صور غريبة أحياناً . في لحظات يثيرني
عبير ، فينطلق عقلي من عقاله نحو شيء لا أعرف كنهه .
غرق الآب في ذكرياته برهة .

جذب طالب اليد أطراف الحديث برفق ، وقال :

— لن انبس ببنت شفة . سأجلس إلى جانبها ولن أزعجها . يكفيني أن
أكون بجرارها . ستكون هذه متعتي . سأكرس حياتي لها .

شغل الآب عنه بذكرياته . استرسل بصوت يكاد يكون همسا :

— ذات أمسية في أغسطس . ذكرى بعيدة . دعنى أوقفها من بواكير

شبابي . الشباك مفتوح في غرفتي الزرقاء ، وأريكتي الحمراء تسبح في ضوء القمر . . . أكانت حقاً في أغسطس تلك اللمسية ؟ كانت بشرة مخملية ، كأنها من يا سمير أسود قد تسجعت . لا أكاد أذكر المبتلين ، لكنني أذكر اللمسات الدافئة ، والآنفاس . وأكاد أذكر الشفتين . يخيّل إلي أنهما بنفسجيتان . . آه ، أجل ، كانتا في لون البنفسج .

غرق الآب في لجة من الصحة والتأمل .
لكنه رئيس الخدم حتى يفوق من ذكرياته المشبوبة ، وقال له بصراحة :

— ألف رجل إلى الهلاك يذهب من أجل متعة قصيرة ، كاللحم تلبدد .

هب الآب ، وصاح في الصياد مذهولاً :

— لكن هذا الحب ، يا فتى قد ينتهي بمأساة !

زاد الخدم اتفاقاً حول الآب بوجوه قائمة وإيماءات تهديدية .

أطل رئيس الخدم برأسه من على كتف الآب ، وسأل طالب اليد :

— هل يمكنك أن تخبرنا ، أيها الشاب ، عن مبلغ ما تكسبه في اليوم ، أو في الشهر ، أو في السنة ؟

رفع الفتى كتفيه ثم اخفضهما ، وأجاب كما لو كان السؤال الذي وجهه إليه في غير موضعه :

— في الواقع ، لا يمكنني أن أعرف . جيتي على الدوام نحاو ، لكن مستقبلاً . .

قاطعه رئيس الخدم قائلاً :

— المستقبل مجرد فرض . لنقف عند الحقائق .

أدرك طالب اليد أن رده كان أسوأ رد يُتوقع منه . أراد أن
يصحح موقفه :

— انى أعمل بكل جِد وإخلاص . يمكننا أن نعيش أنا ونوارة ، على ما
اكتسب ، متى كنا حريصين .

صاحت نوارة ، وقد هبت لتصرته :

— لن نضطر إلى ذلك . ان لى إيراداً خاصاً .

التفت الأب إلى ابنته . قال بلهجة صارمة :

— تذكري ، يا عزيزتى ، أن لى كل السلطة ان أحرمك من هذا الإيراد ،
متى أقدمت على عمل شائن .

آلم هذا الرد طالب اليد . قال بمرارة :

— وهل يعتبر زواجها منى عملاً شائناً ، يا سيدى ؟

انبرى رئيس الخدم يقول له من فرق منكب الأب :

— لا نعرف عنك إلا القليل ، يا بنى ، لكن ما نعرفه تنك ليس ساراً .
منذ متى تعمل فى مهنتك ؟

— منذ ان دخلت بابل جيوش الحلفاء .

— ومع ذلك لم تصب شيئاً من النجاح . وماذا كنت تعمل قبل ذلك ؟

— بائع ساعات ، بهلواناً ، مهرجاً ، صحفياً ، ماسح أحذية ، محط نصوص ،
مفسكراً ، وكاتباً صحفياً .

أراد رئيس الخدم أن يلعب بالفتى ، كما يلعب القط بالفأر قبل أن
ينقض عليه :

— عظيم . عظيم . انها لخبرات هائلة .

ثم قال له بلهجة ساخنة :
— فشلت في كل هذه الأعمال ؟ تركتها ؟
— لم تكن تناسبني ، فأنا على الدوام أبحث عن الموت اللذيذ المولم المراد
بلا إرادة .

نظر طالب اليد إلى نواره
أخفضت نظراتها عنه بسرعة ، مثل عصفور صغير خائف .
أسترسل قائلاً :

— أني أبحث عن الحب .
سرت في جموع الخدم همهمة .
التفت طالب اليد إلى الأب ، غمز له بعينه قائلاً :
— اليس كذلك ، أيها السيد ؟

رد الأب بطريقة آلية ، وبصوت مرتفع :
— لا أوافق. أبتنى يجب أن تبقى إلى جوارى . . هنا .
وأرتعد صوته :

— اني خائف .
رفعت نواره عينيها إليه سائلة :
— وأنت أيضا تخاف ، يا أبي ؟
كان النهار لا يزال طويلاً ، لكنه كان يخشى . . .

— ماذا تخشى ، يا أبي ؟
كان يخشى الأيام التي تدوى . يخشى الظلمة التي تعم بعد
الغنديل .

أطرق الأب ، ولم يهيب .
 قطعت نواراة الصمت الخيم صائحة جزمة :
 — أرى ، القيثارة التي انكسرت كانت مليئة بالبحر
 تأجج الألم في قلبها من جديد .
 التفت الأب إليها ، وأجابها في خشونة :
 — لكن الحنجرة التي طلبت كانت حافلة بالخفافيش .
 كان ذلك بمثابة إيمان بالانقراض .
 انصرف الجميع تاركين نواراة وطالب اليد وحدهما .

زحفت ظلال الغروب على الحوائط في بطل .
 وتعالى صوت طالب اليد كما لو كان طعنات خنجر يمزق قلب نواراة :
 — لماذا ، لا تنفصلين عنهم ، وتكونين سيدة نفسك ؟
 وجاءت أجابتها هادئة حزينة :
 — من السهل أن تقول ذلك ، أما أنا فلا أستطيع .
 انها ولدت في هذا الميناء ، ولم تغادره قط . كانت تشعر كأنها قارب
 مربوط في مرساة .
 تنهدت . ثم أثبتت أنظارها عليه .
 ثم لو كان ذلك شئنا يريد هو حقا لضغطت على نفسها ، وكافحت من
 أجله ، بكل قواها ، لكنها كانت تحس في أعماقها أنه شيء تريده هي
 وحدها .

ضحكت ضحكة قصيرة مريرة .
 هذا فضلا عن أن ذلك الشيء جاء متأخرا .

وقالت بحزن :

— مالت شمس حياتي إلى المغيب . أبي دائماً على حق .

تشبثت بذراعها ، وصاحت في لوعة :

— أرجوك ، صدقني . أحب الحياة . أبغض هذه الجدران .

كانت في حيرة من أمرها . لم تسكن تدرى ماذا تفعل .

— كيف ؟ كيف ؟ كيف ؟

أمسك طالب اليد بيديها :

— يقولون إنه أوقعك في حائلة ، لكن أشد المراحل عسراً تبدأ الآن .

يمكننا أن نعيش حياة طويلة معاً ، يا عزيزتي . ليس عليك إلا أن تقولي كلمتك .

خفض صوته ، وألح في طلبه :

— أيتها الحبيبة المسكينة ، انفضي ، اهربي ، ارحلي . لا زال الوقت متسعاً .

دفنت نواردة وجهها بين يديها ، وقالت بصوت تمزقه الرغبة والمقاومة :

— لن أبعد عنه ! لن أبعد عنه ! هو أبي ، والفراق عنه مُرٌّ . شيء في

أعماقي يمنعني . عينا ثعبان خفي تسكبلاني .

لم يستسلم طالب اليد ، وأردف هامساً :

— احزمي ثيابك الليلة ، وهم نيام . سنرحل بأول قطار ، عند الفجر معاً .

جذبها من يدها .

مازمت ، وسحبت يدها .

— لا جدوى ، يا حبيبي .

كانت جزأ منهم ، جذورهم مغروسة فيها ، تشدها إليهم بقوة .

— هو الشجرة الكبيرة التي تبسط على ظلالها .
— سيقضي عليك .
— فليقض على . لا أخشى شيئاً إلى جوارده . إذا سأله خيراً لن يعطيني
حجراً .

صدمت تفكير . ثم استطردت :
— لكنني في النهاية امرأة ، وربما غيرت رأي .
— وعندئذ ؟

اجابت في حزم :
— سأختط طريقى .
تناولت عودها . مضت إلى النافذة ، وجلست شاردة اللب حتى انتهى
بها الأمر فلم تعد تفكر بوجود أحد .
أسقط في يدي طالب اليد . هز رأسه . وهم بالانصراف .
وعند الباب استدار ، وتأملها ملياً :
— لا أحد يغفل من قدره . طالب مساوئك ، يا . . يا أختاه .
لم تسمعه .

استغرقت نواردة في صلاة خافتة :
— الروح التي منحني إياه ، يا أبتاه ، طاهرة . اعرف أنك ستزعجها مني
إذا حانت الساعة . . لتعيدها إلى المستقبل .
زحفت الظلال بسرعة .
ونخبت الظلمة .

هرول مؤمن داخلا في أعقاب الأستاذ كرم .

— طالب يومك ، ياسيدي الأستاذ

النفقت الأستاذ كرم إلى مؤمن .

كشف ضوء المصباح المنعكس على وجه الأستاذ شها قويا بالاب حتى لا يكاد من يراه يهتف أنه هو ، لكنه ليس الاب على أي حال .

توقف الأستاذ كرم ، وصاح دهشا :

— من أرى ؟ تلميذي القديم ؟ مرحبا بك ، وافق .

لم يكن قد رآه منذ سنين . دارت به الأيام . رحل ثم عاد . هذا حال الدنيا . رحيل ثم عودة على الدوام .

فهم الأستاذ كرم ما كان يدور بخلد تلميذه :

— جئت تطالب الرأي ؟

مد إليه ذراعه :

— حسنا ، أرني .

ناوله مؤمن أوراقا :

— ها هي تجاربي .

خفت ضوء الغرفة قليلا .

ألصق أحد الخدم أنفه وجبينه بزجاج النافذة الممتلئ .

تأمل الأستاذ ما قدم إليه من أوراق . ثم ثبتت على مؤمن نظرة ثاقبة :

— دبت البرودة في الأرض ، وفي سطح البحيرة .

- وضع مؤمن يده على قلبه غاضبا :
- سيدى ، أنت تذبش فى أعماق .
- غلت ثورة الأستاذ :
- اختفى الهدوء . راحت الأصياف الدافئة إلى غير رجعة . النظرات
شردت إلى البحر ، واطلم الأفق .
- ألصق الخادم أذنه على الزجاج علته يتابع ما يقال .
- عاد الأستاذ يتفحص الأوراق برهة قصيرة :
- عما تبحث ، يافى ؟ ماذا تتوقع ؟
- ثم واجه التلميذ بحزم :
- قل لى هل تنوى الخروج ؟
- هز مؤمن رأسه نافيا التهمة عن نفسه :
- سند ليست تجارى رغبة فى الفرار ، أنا أشد ارتباطا ، ياسيدى .
- وقال الأستاذ بغضب مكتوم :
- هل دخلت عقل قط نهاب لحظة تأمبه للانقضاض على عصفور ؟
- دار الأستاذ حول مؤمن متفحصا واضعا يده خلف ظهره :
- ويل لك إذا كنت قد تغلغلت ، واكتشفت ما كان خافيا .
- مضى مؤمن يؤكد صدق نفسه بحماسة :
- عالم أجزم لك أنه أكثر دقة ونظاما ، كائنات قد يُظن أنها لاتعنيها ،
لها حياتها ومغامراتها ومعاركها ومآسها .
- ضحك الأستاذ مسفهاً :
- تنحرك ؟ أجل تنحرك فى جو بالخرافات أشبه

ولوح بيده مستكرا :

— لا ، لا ينهض ذلك عذرا .

ومع ذلك انها منا ، انها في أعماق وجودنا . انها فوق هاماتنا . انها هنا وهناك وفي كل مكان ، ويزداد ضغطها الحاحا وقسوة يوما بعد يوم . أهل المدن الكبيرة في حاجة إلى الخروج من الجدران العالية وأسفلت الطرق .

وصاح الأستاذ :

— لكن أنت حذر . لا شأن لك بكل هذا .

ثم أخفض صوته :

— نحن من أعماق الريف .

الرتابة أفسدت طعم الحياة على الشفاء العجوز . الفت العيون الضوء . لم تعد تبصر الظلمة . لم تعد تلنست إلى الذرات الوضيئة التي تعبر الأفق في ليالي الصيف ، أنظر إلى عيني طفل تلعان وهما تنظران إلى عجلة دراجة تسير ، أو إلى بندول ساعة يهتز .

جاء خادم آخر ، والصق أذنه بالنافذة .

عاد الأستاذ يقول ساخرا ناقما :

— إذن ، تسيطر عليك فكرة الطبيعة الحزينة . ستدفع الثمن غاليا .

لم يكن ذلك بالشئ الجديد عليه .

كان يعرف أنه يوم يموت لن يسير في جنازته غير أبيه وأمه . وربما كلبه الأمين .

وكان قد وطد العزم أن يمر على أهل المدينة واحدا واحدا قبل أن يوضع في الصندوق ، ويسألهم ما إذا كان لهم في ذمته شيء .

كان يعرف أنه سيقُتل يوماً ، بالفأس أو بالخنجر .
وكان يتخيل الأمور كما ستكون عليه : ها هو الرأس الرخامى قد نُزع
والشعر الجعد مُفرّق في الوسط ، ثم أنسدل على الأذنين والحدين والعنق ،
مثل موضة تلك الأيام .

صاح مؤمن منذراً الأستاذ كرم :
— لمسة أخيرة في ثوب ديدمونة قبل أن يحفظ في الدولاب !
سَخَفَ الأستاذ من إنذار مؤمن :

— تيجان ترحف على الأرض ، تبعث عن رؤوس تصعد حلماً ، وتلع ، فيران
تبعث في القاعات فساداً ، ورماح نُثرت بين الانقراض .
هو الأستاذ رأسه :

— أنى أعرفك حق المعرفة .

وضحك ساخراً من تليذه :

— ليس قلب الإنسان سوى صرخة . لا شيء غير ذلك .

قلب الإنسان صرخة ؟ ! هو يقول ذلك ؟ ! وهل من أحد يعرف
صرخة الإنسان مثل مؤمن ؟ ! هل من أحد سمع صداها في أعماقه
مثل مؤمن ؟ !

ارتج كيانه إنفعالا .

لقد رأى المسوخ والغيلان تطبع القبلات على شفاه الصبايا ، وترشف
الدماء من أعناقهن ، وللنساء العاريات يرقصن رقصة المنايا .

وقال الأستاذ مسخفاً :

— أعرف داءك ، وسبب بلواك . سكنت البيوت المهجورة النائمة بين
الأغصان السكيفة على شواطئ المستنقعات .

تهد مؤمن ، وتناوبت الصور في مخيلته .
لقد عرف العزلة اللانهاية تخيم على الطبيعة الخلوية الحزينة . وينبثق
من أرجائها لجأة رعب لا يُدرِكُ كنهه . رعب لا يمكن وصفه ، حتى يصبح
صرخة تمزق السكون .

صوب الأستاذ إليه أصبحته متبهماً :
— أيها الخسيس ، أتذكر ذلك ؟

جمحت عينا مؤمن ، وتقلصت شفثاه . أنبسطت راحتاه ، وانفجرت
أصابه . بدا كما لو كان قد غاب عن وعيه ، وافتصرت الحياة على يديه .
اللتين تنعركان بكل مضاء في الفضاء نحو عنق الأستاذ كرم الذي هوى إلى
الوراء على الأرض راكمأ على ركبتيه فاغر الفم ، يريد الصياح لكن
الصرخة لا تخرج من حلقه .

حوط مؤمن عنق الأستاذ كرم ، وقال له بصوت مبحوح يقطر حقدأ :
— أعرف ماذا تريد . كف يدك عنها . لم تعد في ولايتك ، ولم تعد
غريرة . ليسكن التمساح عدوك .

حاول الأستاذ كرم من جديد أن يطلق صيحة فخرجت من شديقه
ضحكة حادة أعادت مؤمن إلى صوابه ، فارخى قبضته ، بينما ظلت يدها
مشدودتين في الفضاء .

تمسك الأستاذ من الإفلات . فرتمتدا عن مؤمن . أسند ظهره
إلى الحائط لاهثاً . مسح جبينه ، ثم أصلح من ربطة عنقه . قال
بصوت عميق :

— أيها الحقير ، فلتقطع ذراعك . كانت مهزلة رائعة ! مهزلة محكمة !
دعني أضحك مثلاً شدي .

إبتاع لهابه ثم أردف صائحاً :
— أم تريدني أن أبكي ؟ إن دهشتي لعظيمة ! استحققت درجتك العلمية
بجدارة !

وخطا بضغ خطرات نحو مؤمن بإيقاع تهديدي :
— أيها الغبي ، هذه الأعيب دنيئة ! أهنتك !
ثم قال له بصراحة :

— ما هذا ، أيها الحرياء ؟
أمسك مؤمن من كتفيه :
— كم كانت نظريتك مبهمة !

تراجع مؤمن بضغ خطواته وجلا منهارا على وشك أن يهرخ .
تبعه الأسناذ كرم مركزا نظراته على عينيه :
— لا أعرف كيف تثقن لعبتك . لست الرجل الذي توسمت .
واستهطرد يقول له بازدراء :

— لست سوى دبوس 'تشبب'ك به الأوراق ، قارورة تغلي فيك الأحماض ،
مراهن أحق غير قادر أن يفرز شيئاً لائقاً ، حالم مسكين لا جرأة له على أن
يصنع شيئاً يبعث على الإعجاب والفخر . كلكم حفنة من الكسالى
الآغبياء .

ردد للعبارة ذاتها صائحاً :

— كلكم حفنة من الكسالى الآغبياء ! كلكم !
وضحك ضحكاً مخيفاً :

— هل تعرف مضاد المادة ؟ كلا ؟ هل تعرف ماذا يعني وجوده ؟ هل

رأيت نفسك في مرآة مقلوقة ؟ هل تعرف خواصه العذوانية ؟

صفع مؤمن بشدة ، وقال له :

— عين ومداء ، قلعبا أيسر من شغائها .

فر التليذ إلى الخارج مولولا .

ابتعد الخادمان عن النافذة بسرعة . اختفيا من حيث أنما .

زجر الأستاذ كرم منادياً :

— عنقرة ، الحق به حيا أو ميتا . ثم جهّز لي الحمام .

وخرج .

— ٦ —

أعدت حليلة الشاي ، وصبت في أقذاح من الصفيح . وزعتها على الخدم الحاضرين .

رشف كل من الرجال رشقة ، وأطلق من شفثيه آهة عميقة من الرضاء .

ضحك أبو الخيرات الأعرج ، وانبسطت النجاعيد على وجهه الذي اختلطت

فيه القسوة بالبلاهة . قال مداعباً حليلة :

— غسيل الأطباق هذا تسميه شايًا ؟

تجاهلت دعايته ، وقالت :

— سيأتي زوجي بعد قليل . سيعود من جولاته الليلية ، هو وبقية الزملاء .

دعك عنقرة يديه ، وحاول التغلب على اصطكاك أسنانه :

— الجو ... با ... بارد .

قفز جراب الرأي على قدميه واقفاً ، وهو قزم مقوس الظهر . سأل

بمهيبة :

— من أين يأتي هذا الهواء ؟
أجفل الجميع ، ونظروا إليه بعجب .
قال حامل الما جستير أمين ، وهو ذو أنف ضخم دائم الاحمرار ،
ويتعاطى السعوط بما ينفر الآخرين منه :
— أي هواء ؟ أنا لا أحس بشيء .

ثار جراب الرأي :

— أنت لا تحس بشيء على الإطلاق ، أيتها الحشرة . يمكنني أن أشعر به .
لأنه تيار بارد .

وقف على المقعد . جال بنظره متطلعاً حوله . ثم مد يده ، وأغلق
الكوة اليمنى بعنف :

— يا للغباء ، ما الجدوى من حجب الضوء عن المنافذ ، إذن ، ما دمت
تترك الكوات على هذه الحال ؟

تتأب أبو نعيمة ، فبدأ حلقه مثل برصحيح ، وقال بلا اكتراث :

— إنهم لا يرون بصيصاً من الضوء يتسأل من مجرد منفذ واحد .

احتج عليه جراب الرأي :

— لا تكن مجنوناً ، أيها الخنزير . ألا تعرف أية تجارب تجري من حولنا ؟
بواثق ، محركات ، أنابيب ، مواد حارقة ، جرذان . لو حدث أن أفلت
أحد تلك الجرذان خطأ ، وجذبه الضوء إلى هنا ، ستنتطير أشلائوك قبل
أن تنبس باسمك !

هز أبو الخيرات الأعرج رأسه المضغوطة صدقاً على كلام جراب الرأي
بشدة :

— هذا صحيح ، يا رجل . انا لا احب ان اسف ، وحق سيدي .
ثم خفض صوته ، وسأله هامساً :

— لكن قل لي ماذا حدث في جهاز الأشعة ؟

— تقصد جهاز التفجيرات ؟ أحيل إلى المعاش لعدم وجود قطع غيار .
ثم أردف مستدركا :

— لا أعني أن قطع الغيار غير متوافرة . لا ، كل شيء متوافر في الأسواق
على أي حال ، كل ما في الأمر أن الجهاز من طراز قديم . عفا عليه الزمن .
ابتسم عنقرة بخبث ، وهو شاب أشقر بعين واحدة ، وقال :

— كنت أحسبك ستقول أن قطع الغيار غير متوافرة .
ثم استطرد قائلاً :

— في الحق أنك بارع في المراوغة والتلصص واقتفاء الأثر . قدك التضليل
وجسدك المنكش يساءل انك على ذلك .

ضحك أبو الدجاج ، وهو ذو وجه شاحب غاية الشحوب ، تسيل
على بصيلته في تراخ قطرات من العرق ، وسعالة لا ينقطع . ثم قال :

— لا ، لا ، يعتمد الأمر على الجسم ، بل على التربية . يستطيع البيت أن
يقوم بدور هام في إعداد البرامج الخاصة بتربية الطفل الموهوب .
أخذ حامل الما جستير أمين قرصة من علبة السحوط . دسها في منخاره .
اغروقت عيناه ، وقال :

— أتعرفون ، أيها الرفاق ؟ هذا الولد مؤمن موهوب حقاً . إنني أعرفه
جيداً منذ صغره . فقد التحقت بهذا البيت بعد وفاة أمه بقليل . إن لديه
قدرة فائقة على الملاحظة ، والاستنتاج ، والتعميم ، والتجربة ، وفهم المعاني ،

والفكر المنطقي ، وإدراك العلاقات .

انبرى أبو نعيمة يرد عليه :

— لكنه الأسف ميال إلى المقاومة إذا وجد في موقف يخزيه بالخش .

سعل حامل الما جستير أمين بشدة . مسح أنفه بكُمِّه .

استطرد أبو نعيمة :

— وليس عنده استعداد لتقبل حقائق الموت . هو دائم قلق ، يطارده شعور بعدم الاستقرار ، ميال إلى الانزواء . لا يشعر براحة سوى مع تلك الملعونة . لو فصل بين جسديهما لما أصبحا منفصلين حقاً . إذا ما زاد الحب عن حده أصبح خطيئة .

بصق على الأرض .

قالت حليلة ، وهي تجمع الأقداح الفارغة :

— إنهما مرتبطان أحدهما بالآخر . يتبادلان النظر ، ويشعران بالسعادة .

قال حامل الما جستير أمين :

— وتارة أيضاً يسبب أحدهما الأذى للآخر .

خفَضَ صوته :

— ويصل به الحد إلى أن يكرهما . يلتقي في وجهها كلاماً قاسياً . هذه نقطة جدية بأن ندرسها ، ونستفيد منها ، لنخلص ، لننقذ أجورنا ، لنصبح بشراً من جديد . ما الذي نأخذ منهم جميعاً سوى الشتائم وسوء المعاملة ؟ عمل

كثير ، ولا طعام . لحم مفروم نقي : نفايات مقيمة لا تليق إلا بالخنازير .
لعنة الله عليها !

بصق مشمئزاً ، وتناول نتفة أخرى من السموط .
واصل جراب الرأي الحديث قائلاً :

— اتعرفون ماذا تنتظر هذه الساحرة اللئيمة ؟ شيء لا يذبت إلا من قلب
امرأة . إنها تنتظر اللحظة التي لن يستطيع أن ينبس فيها بكلمة أو يرمي
بإيماة إلا وحدها مقبلاً . عندئذ ستكون رهن إشارته .
انخرط أبو الدجاج في نوبة من السعال الحاد .

عطس حامل الما جستير ، وقال بلمجة الواصل من عليه :
— أتيت لي فرصة القيام بدراسة ميدانية لقاب المرأة ، أيها الرفاق ،
وأستطيع أن أجزم أنها بذلك تحطمه .
انبرى له جراب الرأي مسفهاً :

— تحطمه ؟ لكنه غير موجود . أعنى غير موجود خارجها . أقسم لك
بكل زبانية جهنم أنهما ملتصقان . عندما كانا صغيرين كانا يلعبان معاً ، وكانا
سعيدين لكن هذا زمن بعيد ، والطفولة لم يعد لها وجود . ولدت ، وولدت معها
تلك السعادة الطاهرة العميقة - التي لا نعرفها - وحل محلها العار والخجل .
عقب أبو زعجه قائلاً :

— سيأتي اليوم الذي يفلت من براثنها حتماً ، ويخرج من ظلها . أليس رجلاً ؟
سفه عنقرة من قوله :

— يا لقلّة خبرتك بالرجال . ثم أين يمكن أن يذهب ؟ لو كان ثمة مقصد له
لرحل منذ أمد طويل .

بصق أبو نعبجة على الأرض :
دفع رئيس الخدم الباب ، دخل ، وأغلق الباب خلفه بسرعة :
— الريح في الخارج تولول كالمجنونة . المطر غزير . لم يسبق أن أمطرت
السما بهذا الشكل .

نفض المطر من على ملابسه .
هرعت إليه حليلة بقدرح من الشاي الساخن . رشف رشفة طويلة ،
وقال :

— وجدت العظام مدفونة تحت السور البحري . التنقيب جار . بقية
الزملاء هناك للمعاونة في طمس الحقائق . لدينا أوامر بأن نجابه كل موقف
بما يتناسب وظروفه .

قال أبو الدجاج :
— كان الأجدر أن نترك جثته للخربان انتهشها .
عقب أبو نعبجة قائلا :

— حمد الله ، أنه ميت الآن . لم تعد عيناء الزجاجيتان تنظران إلى .
أشاح بوجهه مسترسلا :
— أود أن أنساها .

قال له رئيس الخدم بلهجة صارمة :
— يبدو أنك مستجد . الأمر في منتهى الوضوح . كلما اعتدت الأشياء
وألقتها كلما سهّلت حيانتك .

— نُخيل إلى أنه كان يتحرك ، يلتفض ، يقلب ونحن ننزله في الحفرة .
جرع رئيس الخدم قدحه كل دفعة واحدة :

- اسكن ليس هذا ما أريد أن أحدثكم عنه .
 قطب جبينه لحظة محاولاً أن يتذكر أمراً :
 — آه : مضاد المادة . أجل . هذا ما يسمى إليه العجوز سيدنا .
 تسامل أبو الخترات مستفسراً :
 — يقال أن هذا المضاد مُخلق ساعة خلق هذا الكون . هل يمكن أن يولد
 الشر مع الخير في ذات اللحظة ؟
 رفقته رئيس الخدم بنظرة حادة :
 — سؤال لا جواب له . كل عيشك واسكت .
 صدّق عنقرة على هذا الرأي قائلاً :
 — المرء مطوى تحت لسانه . ليس لنا شأن بأى شيء .
 وتبعه جراب الرأي مؤيداً :
 — لا يزال المرء في سعة من أمره ما لم يقل أو يفعل . نحن صنفعة بيضاء ،
 ولئيكاتبَ عليها ما يكتب .

— ٧ —

- جري مؤمن لاهثاً . صعد الدراجات مهرولا . ثم طرق الباب بشدة .
 نهضت نواردة من مقعدها . وقفت في مكانها متوترة ترقب الباب .
 تعالي صوت مؤمن من الخارج هلعاً :
 — افتحي . أرجوك ، بسرعة !
 هرعت نواردة إلى الباب ، وفتحته .
 اندفع مؤمن داخلاً . ولما كانت ذراعه اليمى قد بُترت عند الكتف

فقد تدلى كفه منهذلاً إلى جانب المعطف الثقيل الذي يرتديه، ومضى يتأرجح مصططداً بجسمه كلما أتى بحركة .

بدا مؤمن كما لو كان قد كبر عشر سنوات ، إذ تهدل كتفيه كما لو كانا قد أثقلتهما الهموم .

جزعت نواراة عندما رآته :

— مؤمن ! مالك تلهث ؟ !

كان العرق يتصبب من جبينه ، وقد جمعت عيناه .

تشبث بها مؤمن ، وهو يتطلع خلفه نحو الباب في ذعر شديد .

— ماذا هناك ؟

أجاب مؤمن بصوت مضطرب :

— أنهم يطاردونني .

وتوسل إليها :

— أغلق الباب .

ثم صرخ :

— أسرع ! أسرع !

دفعها نحو الباب . ثم تراجع إلى الحائط القصى .

ذهبت نواراة إلى الباب مهرولة ، وأغلقتة .

ارتاح قلب مؤمن قليلاً .

سألته نواراة :

— هل أغضببت أحداً ؟

— آه ، كادوا يلحقون بي !

إر-كنت نواره بظارها إلى الباب ، والتفتت إلى مؤمن مستفسرة :
— منه الذي يطاردك في مثل هذه الليلة المقمرة ؟

إر-تعش صوت مؤمن :

— لو كانوا لحقوا بي .. آه .. لا بد أنهم كانوا ..
— لكن من هم ؟ هل ضايقك الحكماء ؟ أم لعلك أثرت الحسد في قلب أحد ؟
أردف مؤمن ، كما لو كان لم يسمع أخيه :
— أطلقوا في أعقاب جوادا جامحا لإدفع في الطريق يعد ورائي .
سمع صهيل جواد من بعيد جدا .

— كان صهيله يهيم أذني ، وقد لمعت في الظلمة عيناه وأسنانه . لمعت ، لمعت ،
مسح مؤمن شفطيه الجافتين بكفه .

فتمت نواره ذراعيا ، ورفعتهما في وقفة رهبة :
— بالله عما تخاف ؟ بمن تخاف ، يا مؤمن ؟
— منهم ، من أولئك الذين يطاردوني .
قالت نواره مستفسرة ، كما لو كانت تجهري تحقيرا :

— ومن هم مطاردوك ؟

قال مؤمن :

— أنت لا تعرفينهم .

ثم استطرد متوسلا :

— صدقيني . طاردوني .

وضع يده على أذنيه يرفف السمع :

— لازلت أسمع الصهيل ، أسمع السنابل على صخر الطريق .

عاد صوت الجواد يعدو من بعيد جدا .
إبتلع مؤمن لعابه ، وقد جف حلقه .
ذهبت نواره ، وأحضرت له كوبا من الماء ، فجرعها بامغنة . ثم عادت
الأخت تسند ظهرها إلى الباب من جديد .
تراجع مؤمن مبتعدا ، ولا زال جا حظ العينين ، والرعب مستحوذا
على حواسه .

مضى يسرد قصته . كانت كابوسا مرعبا . العاصفة شديدة ، والليل
قاتم مقبض ، وكان يحتم على البلدة كلها شعور خفي كثيب ، كما لو كان
الجو ينذر بشر سيحيق بالوجود .
نظر مؤمن إلى أخته متوسلا :
— بالله ، أغلق النافذة ، يا نواره !
— أنها مغلقة .

نظر مؤمن إلى النافذة المغلقة بنوجس . حقا ؟ خيل إليه أنها ليست
مغلقة !

— إذن أحكى إغلاقها . أنوسل إليك .
ذهبت نواره إلى النافذة . وتأكدت من إحكام إغلاقها .
— حسنا ، حسنا ، يا مؤمن ، فإيطمن قلبك .
واصل روايته . كانوا في ثيابهم القاتمة كسرب من الغربان ، يتطلعون
إلى البحر ، إلى مياهه السوداء كالمداد ، وإلى الأفق المعتم .
إزداد صوته إرتعاشا :

— بينما كانت هي . . كانت هي . . تقف متشعة بثوبها الأبيض الوضيء

تركز ضوء القمر المتسلسل من الخارج برهة على ثوب نواراة الأبيض .
— على مبهمة منهم : كانت تحديق في الظلام . كانت عيناها واسعتين
مذهلتين .

صعد ضوء القمر وغمر وجه نواراة ، بينما أخذ ضوء الغرفة في الخفوت .
— وكان فيها مزموما كما لو كانت تغالب الصراخ . كان شعرها الأسود
الطويل محلولاً يتهدل على كتفها ، ويتدلى على الأرض ، ويختلط بظلمة الليل .
عالت نواراة على رايته باستخفاف :

— يحدث لك ذلك كلها عدت من عند طبيب الأسنان ، يا مؤمن .

— كانت هناك ، يا أختاه . أقسم لك .

استفسرت نواراة ، كما لو كانت تريد أن تعرف ما إذا كان يعرف
ما تعرفه هي جيداً :

— من هي ، يا مؤمن ؟

مضى في روايته ، كما لو كان لا يسمعها :

— كانت تحديق في الظلمات ، حزينة . في الخلف كان البيت الكبير
تجبه أغصان الشجر التي أحنت الريح هاماتها ، من كل النوافذ تفيض
الأنوار ، تنبض بالرغبة العارمة ، والخوف البهيم .
تأهبت نواراة .

— ثم أخذت تتقدم نحوى . تتقدم نحوى .

أخذت نواراة تخطو نحوه خطوات بطيئة . شحين سكون الغرفة
بأنفاسه اللاهثة ، وهو يمضي في سرد روايته :

— مدت ذراعها نحوى . تسال إلى رعب مبالغت . كانت عيناها

كالكهوف السحيقة . كان الجو من حولي مشحوناً بالخراب وبالآرواح
الغريقة . طغى الرعب على قلبي والعذاب ، فأطلقت صرختي ، واستندرت
على أعقابى أجرى . . أجرى . . أجرى . هارباً من محنتي . لم أجد جسراً على
الإلتفات خلفي . . نظراتها تلاحقني ، وتنفذ من عظام ظهري
ثم أضاف بنبرات ثقيلة :

— كنت مشدوداً إليها .

كانت نواردة قد اقتربت منه كثيراً ، فتوقفت وأمسكت رأسها بيديها
في ألم .

— لكنني كنت أجرى ، وأجرى . . اجتزت الجسر ، والسحب الهاربة
تردد صرختي .

عادت نواردة إلى حالتها الطبيعية . وقالت لأول من مهنودة .

— فلندخل السكينة إلى قلبك ، يا حبيبي .
أمسك بيديها راسماً :

— بالله ، هل الأبواب محكمة الإغلاق ؟
تلفتت حواها :

— أجل ، والنوافذ أيضاً .

— كلها ؟

لكن هذا خليط من . . . هل كان الخدر كثيراً هذه المرة ؟

— مخدر ؟ ! أقسم أنني مطاردة ، العيون في السماء كثيرة ترقبنا من بعيد
وتطاردنا صرختي أضجت امرأة تعدو في يديها فسيحة ، وقد أصقت من فرط
رعبها يديها إلى رأسها .

أشار إلى أحد الأركان :

— ها هي الغرفة الحزينة . ترفرف عليها روح أمنا الحبيبة . يرقد جسدها
هنا في صمت . . .

أجهش بالبكاء . لكنه ما لبث أن عاود الكلام بصوت متهدج :
— . . . في صمت أبلغ تعبيراً من كل الكلمات في الوجود . . . عندما
القوا الحجر الثقيل في هيروشيا ماتت أمي .
أخذت نواراة بيده في حنان وأنهضته :

— تعال إلى . تعال ، يا بني ، إلى صدري ، بين أحضاني . صم أذنيك
واسترح . اغلق عينيك . اهدأ ، ولا تسمع سوائ
ذهبت به إلى كرسي . جلست عليه ، وركع هو مسنداً رأسه إلى
حجرها :

— أنا لحسب . أنا عيناك وأذناك ، وأيامك كلها . دعك مما يحدث
في الخارج . أنا أنفاسك . المهم ، لنا الداخل ، وليقل الهامسون في
في القوارب المقمرة عنا ما يقولون .

تنهد مؤمن بارتياح ، وأغضض عينيه مستسلماً :

— لنسكن مشيئتك . أنت تجمعين أشعتي وتكشفينها ، وتجهلين من
الشعاعة ضوءاً ، ومن الضوء منارة .

— سيزول الكرب غداً . إنه مجرد سحابة عابرة . أرهقت نفسك في
الآونة الأخيرة . كل ما يلزمك بعض الراحة ، وطبق من الحساء الدافئ .

رفع إليها مؤمن بصره بنظرات ملؤها ما في نظرات الشهداء :

— واحسرتاه ، يا أختاه . ليس التعب هو وحده الذي ألقى بي الليلة في هذا

الاضطراب . ثمة أمور أخرى تجري ، يا أختاه ، في الخفاء . ها أنا أعود
إليك في جناح الليل ، وأثير فيك الرعدة ، وأبث في قلبك الشقاء . ليس
الذنب ذنبي ، على أي حال .

— ربما كانت الذنب ذنبي أنا . دعك من تلك الطلوسات ، يا حبيبي ، قد
مسك القمر بلوثته ، وابتعد عنك الأصدقاء القدامى بسبب توجسك الخيفة
منهم ، ومقاطعتك لهم .

انتفض مؤمن ثائراً :

— الأصدقاء ؟ !

ضحك بشدة :

— ليس هناك أصدقاء ، بل غيلان ومسوخ ومردة ! غيلان ومسوخ

ومردة ! غيلان ومسوخ ومردة !

ضحك بشدة ضحكاً متواصلاً .

اظلمت الغرفة تماماً .

تعالى من الخارج جلبة وصهيل الجواد .

ثم دخل الخدم .

توقف مؤمن عن الضحك الخجول . هرعت الأخت إلى أخيها ، حوطته

بذراعيها لتبسط عليه حمايتها من عدوان القتلة المقتنعين ، ولتحمي بدورها

إلى جواره بالأمان . تراجعا إلى ركن قصى ، انزوبا فيه مترقبين .

لتخذ الخدم وقفة تهديدية ، ورفعوا بنادقهم إلى أكتافهم استعداداً لإطلاق

الرصاص على مؤمن ونواره

بعد برهة، رفع مؤمن ذراعيه إلى أعلى في تحد واحتقار. إنكمش الخدم
وتقوس ظهورهم .

صرخ فيهم مؤمن :

— أنتم مدججون بالسلاح ، ونحن أعزلان من كل سلاح ، لكنكم جبّاه
تتكشون فرقا . أنظروا ! تقاصت أصابعكم على زناد البنادق .

أطلق ضحكة إزدراء ، وأردف يقول :

— لا نخشى إرهابكم . ها أنا أتلقي رصاصاتكم الجائرة في صدري .

إضربوا . صدري ينبض باحتقاركم ، أيها المستعمرون الغزاة !

وبصق على الأرض .

دب الارتباك بين الخدم . تراجعت صفوفهم مثل لصوص يتلصصون

الفرار . انسحبوا وظهورهم إلى الباب في ذلة وخوف وخزي ، ولا زالوا

يشرعون بنادقهم ويصوبونها إلى الأخ وأخته . ثم ما إن اقتربوا من الباب

حتى خرجوا منه مهرولين .

— ٨ —

تهدت نواردة بارتياح :

— يا لهم من حشرات دنيئة .

قال لها مؤمن ولا زالت أنظاره معلقة بالباب الذي خرجوا منه :

— إذا نالوني ، فلن يكون ذلك من الأمام . إن أطمعن في صدري .

— ألا زلت تريد أن تميش ؟

— أنى متفائل ، أرمن بأننا يجب أن نشبث بالحياة . ليس وجودنا عبثا

لا طائل من وراءه .

— الحياة رسالة ؟

— حتى نتعاون على أن نموت . عزائنا أننا نشيِّع بعضنا بعضاً إلى القبر .
إذا كنا ننجب أولاداً فليتعنتنا نحن ، أما هم فيدفعون الثمن غالياً ، وإذا
كنا نموت فلأننا لا نفهم معنى الحياة .

ثم دوى صوته صارخاً :

— أجل ، يا أختاه ، أننا لا نفهم معنى الحياة !

والنفت إلى الجدران يشير اليها :

— ولا أنتم ، يا من تتنفسون هناك .

تمالت جلبة الخدم من الخارج ، وبدت أشباحهم خافت النوافذ . النفث

مؤمن ونوارة اليهم برهة ، ثم اختفوا .

— هؤلاء الخدم أصبحوا لا يطاقون . لا أعرف ما الذي يمنعنا من طردهم
منحك مؤمن ساخرأ :

— حقاً ، لا أعرفين ؟

— لا أفهمك . انهم يدخلون شيئاً من النظام في هذا البيت فحسب . يعملون
مطالب الروح الاجتماعية قابلة للتحقيق . يحولون الأمور من مجرد أمان
إلى برنامج عمل . هذا كل ما في الأمر .

وأضافت نوارة ضاحكة :

— ثم لا تنس د الثبن لهم في النهاية والشعير لأسيادهم .

— أرجوك ، يا أختاه ، ألا نعود إلى هذا الموضوع .

— وضَّح ، هيا ، قليل من الشجاعة .

— حسناً ، طالماً تهربين . هؤلاء ، في الواقع ، معينون لحايقنا . يجب أن

نحتملهم حتى نتعاشى ما هو أسوأ .

واستطرد ساخرأ :

— ظهورهم إذن ليس عرضياً ، بل يتوقف عليهم مستقبل هذا البيت .

— هؤلاء رجال ناجحون رجال إدارة وطب وعمارة ، وكلام كثير ،

ومعارف وتجارة . مازلت لا أفهمك . أية سنة تؤملك ؟

— دعك من المراوغة . إذا نظرت داخل الصدور ستجدين تيماً مظلماً ،

أيلاً بلا نجوم ، سماء تخيم عليها الغيوم . أنت تفهمين جيداً . لحظات عمرهم

أنياب ومخالب ، ثمار بلا رحيق . أغصان جافة بلا زهور ، شموع منطفئة .

واستطرد يقول :

— كل ما يدعو به منا هو ثيابنا القديمة ، بضع رشقات من شمالات أقدا حنا ،

أن يلبسوا أحذيتنا ، ويشنطقوا بأحزمتنا ، ويناموا في أسرتنا الحجرية .

مخلوقات فظيعة لكننا جوفاء ، مخلوقات ضخمة جرملة لكننا حبيسة تعسة .

الوجود من حولهم فضة وذهب ، مناصب وأوسمة ، مكاسب وتخطيات ،

مؤتمرات وتهديات .

بدت نواردة كما لو كانت قد تجرحت :

— ما من عصفور يغرد في القلوب ! ما من فراشة تحط على الذنوب !

ما من حياء ؟ ! ما من أمل ؟ ! أو ، هذا اتهام ! الحراسة مفروضة عليك ؟

— هل الأقل ، أنت لا تمنعهم . انهم امتداد .

— لا تكن قاسياً في حكمك على الآخرين . التعود على الطاعة يكسب

الكثير . أننا نعرف بعضنا بعضاً خير معرفة . التردد ليس مشمراً إذا

أضحي حالة دائمة . أتذكر بما كانت تنادينا أمنا ، أنا وأنت ؟

ضحكت نواراة ضحكة قصيرة لا تخلو من عصبية :

— الحبيبين !

تراقصت على الحوائط أضواء وردية حانية .

ووفدت من بعيد نغمات عاطفية خافتة .

ضدّقت نواراة على قوله بصوت خفيض :

— أجل ، كانت تناديننا بالحبيبين !

وبعد برهة صمت دافئة ، أردفت تسأل مؤمن :

— أتذكر الكرامة التي كنا نجلس في ظلمها ؟

— كانت كرامة عريقة خـميرة . لازلت أذكر حياتها للسوداء تلمع في خيالي .

غرقت في الذكريات .

— وكنا نسير على الشاطئ ، أليس كذلك أيها الحبيب ؟ ونرسم على

الرمال مستقبلنا . وعندما كنا نجناز المياه الزرقاء ، ونصعد إلى الصخرة

كنت تمسك بيدي هكذا .

أمسكت يده ، واستطردت قائلة :

— وكنا نشعر أننا ملتصقان ، وإن نفترق .

— كنت توليتي عطفك ، وتبسطين علي حمايتك مثل العنكبوت . .

عندما كنت أكر شيئاً كنت تتحملين مسئوليته ، وكانوا يضربونك بدلاً مني .

مضت نواراة تهمس بعاطفة ووله :

— آه ، حبيبان . أجل . ما أجل ذلك .

تنهدت ، واردفت تقول :

— حكايات قديمة . أحجار استقرت في قاع البحيرة .
خيمت برهة صمت .

ابتعد مؤمن عنها بضع خطوات ، وقال :
— في أعماقك رغبة دفينه . كل هذه الطيبة نوع من المطاردة .
علا صهيل الجواد من بعيد .
صاحت نواراة مستنكرة :

— أنا أطاردك ؟ ! أحاصرك ؟ !
وقالت مؤكدة :

— أنا أحبك . أحبك كما تحب الأمواج الصغور ، كما تحب اللبلاية الجدار ،
كما يحب الليل وقع الأقدام على صخر الطريق . هل عرفت كم أحبك ؟
— أنت من الذكاء أنك تخفين رغباتك : كل أسرتنا مصابة بآفة الذكاء .
دفنت نواراة وجهها في راحتها :

— ما عدت بقادرة أن أمر أمام المرأة . إني أفر منها ، ومن كل المرايا .
المرأة لا تكذب ، إنها صادقة صافية ، مثل نظرات مؤمن الذي كنت أعرفه .
استغرق مؤمن في التفكير :

— إلى أي حد أنت متغلغلة في ا بسطة على نفوذك ، وسرى في تيارك .
سرت في رغبتك .

أخفضت نواراة بصرها ، وقالت بصوت متهدم :
— يقولون أنك لست أخي .

صاح مؤمن رافضاً هذه الفكرة :
— لسكنك أغلى مخلوق عندي في الوجود .

تم مضى بهول بصوت ديجو من السجن .

— إننى لا أحسن التعبير . لا أنتحل لنفسي الأعذار ، كما ترين . فلو نزلت
نعمة الله يوماً في هذا البيت الكئيب فلا أعرف ماذا ستكون إن لم يكن
ماتعطينه هو أنت .

أشاح عنها بهمه وقال :

— أرجو ألا أكون قد جرحتك بكلامى .

— كلا ، كلا ، قل ما عندك ، فقد منجيتنى أكثر مما كنت أرومه حتى في
أشد لحظات صباى طيشاً .

رفعت عينيها ، ونظرت إليه نظرة مفعمة بالحزن والاشفاق والقلق .

تهمد مؤمن ، وغرق في تأملات بعيدة :

— ماذا تريدنى أن أضيف ؟ سبرت أغوارى ، وتعرفين أعماق أفكارى ،
كل خلجاتى . ربما كنت تعرفيننى أكثر مما أعرف أنا نفسى .

خيمت برهة تأمل صامت .

ثم أردف مؤمن يقول :

— يخيل إلى أحياناً أن كل شيء هو أنت . أنت المرأة ، ينعكس على صفحتها
خيالى .

قالت نوازة بوله :

— بل أنت مرأتى .

تعالت رنة موسيقى من الخارج .

وأجاب مؤمن :

— لا يصرخ في داخل أى هاتف بمعارضتك . أصبح الأمر عادة . تصرفاتى

انعكاس لما نريدين أنت . لو استطعت أن تجدى مرآة ماذا ستريين ؟

أخفت نواردة وجهها فجأة بين يديها . تقوس منكبيها ، وتهدج صدرها .
أمواج هائلة تلاطمت في أعماقها :

— مخيف هذا الذي تقول ! مخيف حقاً ! ذبابة قادرة لصقت بطبق من العسل ،
هذه أنا . أخشى النظر في وجهك عندما أسمعك .

بقي وجهها مدفوناً بين راحتيها .

اقترب منها مؤمن ، وربت على كتفها في حنان . قال ملاطفاً :

— دعينا من الخجل ، ولنكف عن إخفاء وجهنا الحقيقي .

رفعت يدها إلى فمها لتمنعه من الكلام :

— أسكت ، أيها الحبيب . أنت تتكلم مثل مريض أو طفل . هل فقدت
صوابك ؟

— وهل لمالك على شيء ؟ إن أستطيع فلا أستطيع أن أسمعك بسوء .
إفهميني ، هل نخشين سماع الحقيقة ؟ إن كنت أتهم أحسداً فإنني أتهم نفسي .
كنت على الدوام بحاجة في أعماقي المظلمة إلى يدك النحيل السمراء تقودني ،
وتلوح لي من بعيد . كنت أحس عندهذ بالحرية في أن أفكر ، وفي أن
أصرف ، وفي أن أكون ذاتي .

ثبت أنظاره في عينيها ، وضحك ضحكة مستخفة :

— أعرف أنك ستنكرين .

دافعت نواردة عن نفسها بحماسة :

— لا ، لا ، هذا غير صحيح . هل أنا هذا المخلوق البشع ؟

وبكت .

أشاح بوجهه :

- لا أحتمل أن أراك تعيسة ، يا نواره .
ثم التفت إليها :
- تقولين على الدوام أنك لا تبكين .
كفكفت دموعها بسرعة ، وعدلت عن البكاء . ثم رفعت رأسها بعزم
وصلابة :
- أنا لا أبكي أبداً ، ولا أعتذر . أنت تعرف ذلك جيداً . الساحرات
لا يذرفن الدموع ، وهآفين على الدوام جدباء .
لمت عيناها بوميض غريب .
استفسر مؤمن بوجل :
- لم يبق في الإزاء زيت ؟
ضحكت نواره ضحكة مرتبكة :
- إنها لعبة .
ثم مضت تقول بصوت ثقيل :
- كل شيء لعبة ، لعبة كبدية ، ولا شيء غير ذلك .
جمدت قسمائها ، وشرد بالها . جاء صوتها من بعيد :
- أين تذهب الدموع ؟ أين تذهب الزفرات ؟ أين تذهب الشبهات ؟
بل أين تذهب المهرجات ؟
تنهد مؤمن ، وأجاب :
- بحر الصمت يتلعب المهرجات والضحكات والنواح .
مسح جبينه كما لو كان يهرد كابوشا مزعجاً .
- حتى المكان مدلول وفق . لا شيء ساكن جامد . الحركة جوهر الوجود .
الحركة زنين ، ومضة ضوء ، عاطفة ، دورة من المخالق إلى المفتوح .

هزت نواردة رأسها مصدقة :

— لولا ذكاؤك ، يا مؤمن ، لما تفوقت في الرياضيات .

مدت يدها إليه :

— اعطني معادلاتك ، يا حبيبي . سأكتبها لك على الآلة الكاتبة كالمعتاد .

مضى مؤمن إلى الباب :

— انتهى عشاء اليوم لنذهب إلى القبر ، وائماً كنا الديدان وننشقنا العقارب ،

فن القبر بدأنا . وإلى القبر نعود .

خرج مؤمن .

بقيت نواردة وحيدة . جلست على المقعد . وقد خيم الصمت على الغرفة

وغرقت في العتمة الزرقاء .

— ٩ —

دقت من بعيد ساعة البرج المهجور معلنة التاسعة . كان هذا ميعادها

كل مساء .

عند الباب الخارجي ، تحت شجرة جرداء في الميدان ، جاءت امرأة

ضخمة البدن متهللة مثل بقرة عجوز ، حافية القدمين ، تلبس ثوباً طويلاً

فضفاضاً كان ذا لون زاه وبهت ، وتعصب رأسها بمنديل لامع ذا نقاط

حمراء وصفراء لا يبدو أنه قد غسل منذ أمد بعيد .

جلجلت العجلات الخشبية على أسفلت الطريق . ثم بدت البقرة الميجوز

تدفع عربة من عربات الأكل ذات صندوق خشبي زجاجي ملون . وقفت

بها عند السور الجبرى . نادت على بضاعتها نداءات عديدة منغممة . هشت
الذباب ، فعلا سربه في ضوء مصباح البترول المعلق في سقف العربة . ثم
عاد وحط من جديد على كومة الارز بالبصل .

أقبل عليها الخدم يشترتون ، ويتعشون من طعومها : أرغفة محشوة
بالسكوارع والكبد ، سلطة بالخل والزيت ، أقراص كبيرة من الطعمية ،
قرع مقلى ، مكرونة بصلصة حمراء داكنة ، عدس كشرى .

انكب الجمع على التهام الطعام مذبلين بما يملأ الأشداق والبطون .
شرب الخادم الرابع من القلة ذات الرقبة المكسورة ، وسأل جاره :
— ماهذه الحكاية التى جئت بها الليلة ، يا جراب الرأى ؟

قضم جراب الرأى قضمة كبيرة من رغيته :

— كل البلدة أرويا ، على المقامى ، فى الصوامع ، على النواصى ،
وفى الحقول .

أبرى الخادم التاسع ، وهو قصير غليظ عابس الوجه ، مؤكداً :

— بل فى الدوار ، والبندر ، وفى غرفة المسامور . زحفت على بطنى ،
وسمعتهم يتهايمسون .

دهش جراب الرأى ، واغتاظ بعض الشيء إذ اقتضى الأمر أن يشاركه
آخر فى حكايته :

— سمعتم أنى أيضاً ، هيه ؟ إذن ، أبو نرجسه يمكنه أن يقول لكم ما إذا
كنت أكذب أم لا .

صاح بعض الخدم :

— أروها لنا ، يا جراب الرأى ، وحق الشيطان .

بجنت بائعة الحكوارع الأطباق الفارغة .
مسح جراب الرأي فنه بكه ، وبدأ يسرد روايته :
— كان يعيش في الجزيرة مع زوجته .
سأله الخادم الرابع حامل الما جستير أمين :
— ما اسمها ؟

رد عليه عنقرة متبرماً :
— خضرة ، مارسيل ، نواره ، لانهم الأسماء . استمر ، يا جراب الرأي .
أرجوك .

استجاب جراب الرأي إلى تلك اللمحة المرتسمة في العيون المحذقة إليه :
— كانت تبادله شغفاً بشغف . لكنها ما لبثت أن ملأت حبه .
علق حامل الما جستير أمين على ذلك :
— هذا شأن النساء جميعاً .
أضاف أبو نعجة :

— والله ، زوجاتنا أزيار قيئة .
واصل جراب الرأي روايته :
— ضجرت منه ، فانشأت علاقات آئمة مع الشعبان .
تعالى همهمات الدهشة والاستنكار من صفوف المستمعين . صاح
أبو الخيرات الأعرج :

— يا خفي الألفاف ! يا خفي الألفاف !
دارت البائعة عليهم تجمع النقود .
واصل جراب الرأي روايته :

— ثم مع الوحوش الأخرى .
رفعت المرأة البديهة معلقة الصدئة الكبيرة ، وغرفت العدس الساخن
في الأطباق . ثم وزعتها على الزبائن .
واصل جراب الرأي روايته وهو يرشف العدس من طبقه :
— كانت تلتقي بهم عند الساقية ، وخلف الطاحونة ، وعلى الطريق الزراعى
تدخل أبو نعمة :
— رأيتها معهم تحت الجيزة . أقسم على ذلك بعينى هاتين اللتين سياً كلهما
الدود .
نظر إليه جراب الرأي ، وكنم غيظه .
تدخل أبو الخيرات فى الحديث مؤكداً :
— مؤمن لم يكن معهم .
التفت إليه عنقرة :
— أسكت . أيتها الحشرة .
التفت أبو الدجاج إلى البائعة وقد لوى وجهه :
— هذه السكينة تسبب لى وجع البطن ، يا امرأة . قللى من الفلفل ، وحق
نجهنم عليك .
قالت له البقرة المعجوز ببلادة :
— الصبر طيب . . الصبر جميل .
أدار جراب الرأي نحوه رأسه الذى يشبه رأس ثور . وقال له لائماً :
— أمعاء مرهفة ، أيها القرد . عندما تسمع بقية القصة ان تكترث للألم
الذى فى جوفك .

ثم مضى في روايته :

— ذات يوم هجرت بيتها ورسلت . لم يخطر على بال الرجل الوحيدة في الجزيرة المهجورة مع تلك الوحوش التي أنجبتها المرأة من علاقاتها الآثمة . أخذ يجري ملتأاً على الشاطئ . ينادى زوجته الآبقة صارخاً ، فتزد الرياح على صراخه بهرغات مجذونة تجعله يسد أذنيه في فرع مهول . وقد اتشحت السماء والأرض والبحر من حوله بحمرة قانية .

لم يقر أبو نعمة على الانتظار أكثر من ذلك . . خفاف الكلام من زميله جراب الرأي ، ومضى في الرواية :

— لا أطيل عليكم . عادت المرأة إلى الجزيرة الزاخرة بأولادها المسوخ البشعة من خنازير ، وثعابين ، وقرود ، وطيور جارحة .

منحك عنقرة قائلاً :

— مثلنا .

انفجر أبو الخيرات الأعرج صائحاً :

— الدماء ! الدماء ! لا بد من انتقام !

.. مضى أبو نعمة في روايته :

— أحاطت به المسوخ البشعة أولاد الزوجة الخائنة . أحكت قبضتها عليه فهو أبوها في نظرها . حالت بينه وبين الفرار من براثنها . ثم اقتربته ومزقت جسمه إرباً إرباً .

هجم جراب الرأي على أبي نعمة ، وأطبق يديه على عنقه يخنقه :

— استرحت الآن ، أيها الضفدع الثرثار الغبي .

— ليست الحكاية ملكك وحدك ، أيها السكير النتن .

— تريد أن تبتخر على الدوام كأنك دجاجة مذبوحة الرأس .

— تصرفات تليق بالخنازير .

تماسك الخاذمان .

مد عنقرة ناقة فتعثر بها المتشاجران ، وسقطا على الأرض .

تصاعدت عاصفة من الضحك .

نمض جراب الرأي وفاقأ على قدميه ، وقد احتقن وجهه غضباً . وثب على عنقرة الذي لسكه على الفور لسكة قاضية .

ضرب حامل الما جستير عنقرة . وضرب الخادم التاسع أبا الدجاج . وفي غمضة عين نشب شجار شامل . هم المهرج . وزعر المكان بجمع من المسوخ التي أطاح الحقد بصوابهم . وانتهالت الضربات واللكات والركلات والصفعات على غير هدى ، وتبودلت الشتائم :

— نهايون ، صماليك . نمامون ، أنتم ، أنتم لصوص تافهون ، مفتابون ، رعاع أدنياء ، قساسة ، عديمو المسئولية ، مصاصو دماء . أنتم تسفأهلون كلكم . كلنا ضائعون ، ينخر فينا السوس ، مخابيل ، علينا اللعنة .

أطاعت البائعة في هذا الخضم صرخة ، وركعت تجمع الأطباق الملقاة على الأرض من بين أقدام المتشاجرين ، داس أحدهم على أصبعها . ولولت مثل كلبة تعوى . كتعت ألمها . هرعت إلى عربتها وقد استبد بها الذعر . وابتعدت بها بسرعة تنذب ثمن العدس الذي ضاع عليها .

وفي النهاية ، لمعت كالمعتاد ومضت مطواه أشهرت عالياً في ضوء القمر .

وانبعثت صرخة ألم .

تعالى صوب الأمواج هادئة رتيبة من بعيد .

دقت ساعة الحائط معلنة الثانية عشرة .
جلست نواردة تعزف على عودها . تخال عزفها فترات من الصمت
والاستغراق في الذكريات .
تنامى إلى سماعها وقع خطوات على الأرض الحجرية في خارج البيت
صاحبها نباح كلاب ثم دق الباب دقات متتالية .
نهضت نواردة . أسندت العود إلى كرسيها ، وما أن همت بالمضي إلى
الباب سمعت صرير الباب يُفتح . تسمرت في مكانها ، بينما خطا القادم بضع
خطوات داخلا . أنه أحد الخدم المقنعين ، أو ربما رئيسهم يرتدى ملابس
الممالك .

انحنى الرسول انحناءة خفيفة عندما رأى نواردة :
— طاب مساؤك ، يا آنسى . هل الدكتور موجود ؟
سألته نواردة بلاهة متوجسة جافة :
— من الذى يطلب أخى في هذه الساعة المتأخرة ؟
— مندوب من والى الولاية ، يا آنسى .
— هل الأمر على هذا القدر من الأهمية ، أيها الرسول ؟ أنت تعرف أن
أخى لا يقابل أحداً هذه الليالي . وإذا كان الأمر متعلقاً ببعض تجاربه ، فهو
لا يبيع الآن ، ياسيدى .
قال الرسول بخشونة :
— قولى له ، من فضلك ، الأمر أهم من ذلك بكثير . أنه عاجل وسرى
للغاية ، يا آنسى .
تعالت في البهو خطوات ثقيلة بطيئة ، ثم ظهر مؤمن عند باب الخرفة .

- عند مارأي الزائر الغريب وقف عند المدخل برهة :
- طاب مساؤك أيها السيد القادم . ماذا جئت تطلب ؟
إنحني له الرسول ، وانسحب جانباً :
- سيدي الدكتور ، أني موفد من جانب الوالي . جنسابه العالي يعرض عليك عضوية « المجلس الفخري » ، ويطلب منك الموافقة العاجلة ، حتى يتسنى الإنعقاد في أوائل الأسبوع .
- أُخذ مؤمن ، فلم يكن يتوقع مثل هذا العرض :
- عضوية « المجلس الفخري » ، في أوائل الأسبوع ؟
أجابه الرسول :
- أنه لشرف كبير ، أليس كذلك ؟
- تحولت لهجة الرسول إلى لهجة آمرة :
- عليك بمشروعائك في الجلسة ، حتى تتناقش وتتمدد .
- ظل مؤمن مأخوذاً من الأمر :
- أجزأ أوراقي ؟
- قال الرسول كأن الموضوع قضية مسلمة :
- لا شك أنك مرافق أعرف أن تلك المعادلات ...
قاطعه مؤمن بحزم :
- رويدك ، يا سيدي . الذي تدعيه شرفاً كبيراً أرفضه بحرم .
- ثم أضاف بتدريج وانتصار :
- فأت وقت التنازلات .
- ضحك ضحكته الملتأمة :

— كنتم تعتقدون أنني مجنون ، أليس كذلك ؟ منذ أن أشاع أولئك
الآغبياء أكذوبتهم اللعينة عني .

اقتربت نواراة من مؤمن ، ولمست ذراعه مخدرة :

— مؤمن ، أفق .

إلتفت إليها . وقال بشراسة :

— الكذب في عيونهم . قرأته فيها .

تنصل الرسول عما يتهمة به مؤمن :

— أنت مخطيء ، يا سيدي ، أني أثق بك فعلا .

نظر إليه مؤمن بحدة قتين واسمعتين ، وقال ساخراً :

— أجل ، أنت تثق الآن . ومنذا الذي لا يصدق ما تراه عيناها ؟

وواصل مؤمن كلامه ، كما لو كان يحلم :

— المركبة على وشك الإنطلاق . سيرونها عالية ، ذات مساه ، تسبح

أضواءها الخضراء والصفراء والزرقاء والحمراء في السماء .

قال للرسول بلهجة يقينية :

— ان استطيع أحد إيقافها . أراد من أوفدك أو لم يُرد .

أجاب به الرسول بحفاء :

— سندحق بك .

— فأت الأوان على الخونة . بيني وبينكم بحيرة ملائكة بالتماسيح .

ضحك مؤمن بشدة ، وأشار إلى النافذة :

— قسني الأمر الآن . أنظر خارجاً إن كنت تبحرؤ .

ضحك الرسول غير مصدق :

— أنظر خارجاً إن كنت أجرو ؟ لا شك أنك تمزح ، يا دكتور !
أدار مؤمن للرسول ظهره وجرى إلى النافذة يحاول فتحها .
انتهزت نوارذ الفرصة ، اسرعت بتقرب من الرسول بخطى خفيفة .
ثم همست له :

— أنه في حالة سيئة الليلة . هو قادم من عند طبيب الأسنان . إرحل من
فضلك . هذا خير ما يمكن عمله .

تمكن مؤمن من فتح النافذة ، فتدافع الهواء . يعبث بشعره . أطل منه
وقد استخرقته لشوة الإلتصاف :

— إنها راسية هناك . في استطاعة أى شخص أن يراها من هنا بوضوح .
مضت نوارذ تمس بشعيراتنا للرسول ، وقد اختلطت همساتها بهدير
البحر المتدفق من النافذة المفتوحة :

— ليس ثمة شيء هناك . لا توجد أية مركبة على الشاطئ . صدقنى !
نظر الرسول إلى النافذة ، وهو رأسه :

— آسف ، أنه يخاطب البحر .

ألحقت نوارذ فى الرجاء :

— إبتعد عنه . من أجل أمننا المتوفاة ، لا تمسه . أنها أحلام ، فكرة
جنونية عن سفينة ضائعة ، وعالم لم يكن له وجود أبدا .

مال الرسول على نوارذ . قال بصوت خفيض ، وهو يخفى شفطيه
القرمزيين بيده كتيفة الشعر .

— أعتقد ذلك . المهم الآن ما يمكن أن نقبضه نقدا .

— أبه ، ما أدنا الرجال . إبتعد !

تراجع الرسول مفسحاً لها الطريق . ذهبت إلى مؤمن . ربت على كتفه ملاطفة حتى هدأ ، وثاب إلى نفسه . مضى إلى المقعد في وسط الغرفة .
لمح الرسول لا زال واقفاً .

— أوه ، لازلت ماثلاً أمامي ، أيها الوافد الغريب ؟
حديق فيه مؤمن بعينين جاحظتين تراقص فيهما ظلال من الشك والخوف .
هل كان هذا الزائر المريب هو الشيخ الذي يورق نومه كل ليلة ، ويسمع حشرجه في البالوعة ؟

كاد مؤمن أن يسأله متوسلاً ، لكنه استدرك . فات أوان الأحلام الآن
استجمع مؤمن شمل نفسه . شد قامته ، وقال بلهجة جافة :
— طاب مساؤك .

لم يحرك الرسول ساكناً ، فصاح فيه مؤمن :
— أقول ، طاب مساؤك !
صدم الرسول ، وقد تذكر المهمة التي جاء من أجلها :
— أهذا قرارك الأخير ، ياسيدي ؟

التفت إلى نواره ، ونظر إليها نظرة ذات مغزى :
— وأنت ، يا آلسق ؟

نخاطبه مؤمن بإصرار :
— قلت لك طاب مساؤك !

مضى الرسول إلى الباب . وقف هناك برهة ثم استدأ إلى مؤمن :
— ستندم .

ثم التفت إلى نواره :

بـ مشند مان .

ابتسم لهما ابتسامة خبيثة :

— وما أسعد الذين يحملون المحفة ! إنه لخير لنا أن تكون ملوثة من أن

تكون خالية ، دريمات معدودة تصلح كل ...

قاطعه مؤمن ، مصرأ على طرده :

— هيا ، البحر ليس بعيداً من هنا .

رفع الرسول كتفيه وخفضهما ، كمن لا حيلة بيده . ثم خرج .

— ١١ —

عائبت نواردة أخاها :

— ما كان يجب أن تفعل ذلك ! كان يجب أن تنتظر .

تمتم مؤمن باحتقار ، كما لو لم يكن قد سمع نواردة :

— يدعوني إلى عضوية و المجلس الفخري ، ! بالطبع أرفض ، ولو أمكنني

أن أبصق في وجه جناب الوالى لفعلت ، بلا تردد .

صدقت نواردة على كلامه ، وقالت :

— منذ متى يتعاون المخلصون مع ...

أمسك مؤمن بيديها في عنف . تقوس ظهره ، وصرخ في وجهها :

— الأمر أدهى من ذلك !

انكمشت نواردة محارلة تخليص يديها . شدد مؤمن قبضته :

— أنت لا تعرفين ماذا فعل أولئك القوم ! أصدروا الأوامر لتعقيرنا .

أطلقوا كلاب البحر في أعقابنا ، نحن الذين سنصبح يوماً من الأيام ...

لم يكمل مؤمن جملة، كما لو كان قد نسيها ، وتشهد :
— ساعدهم الله !

ثم ضحك في مرارة :
— وبعد كل هذا يأتون إلى طالبيين أن أضع يدي في أيديهم ! يا لها من
سخرية ! يا لها من سخرية !

أثناء انفعال مؤمن واستغراقه في سورة غضبه، دخل الخدم واصطفوا
في أغوار الغرفة ، وقد عقدوا أذرعهم على صدورهم ووقفوا في صمت
متربين .

هدأت العاصفة التي اجتاحت عقل مؤمن ، وحلت محلها مرارة وأسى .
غرق مؤمن في لجة من التأملات ، وهمهم يحدث نفسه :
— قيل لي في الحائط القديم باب صدى . من خلفه حديقة غناء خضرتها
أبدية . دقت الباب بكل شدة فلم يفتح ، وظل الحائط القديم صامتا ينظر
إلى بعيني أعمى .

تقدم نحوه رئيس الخدم ، وسأله في لهجة المحقق :

— هل سألتَ لمَ لم يُفتح الباب ؟
— قيل لي : أنت لا تعرف كيف تطرقه .
— سألتَ مندا الذي يعرف ؟
— قيل لي : لا أحد !

مضى مؤمن يدور من خادم إلى آخر سائلا في لهفة وفاق ، مثل غريق
يتلصص، وسط الأمواج، قشة :

- لا أحد ؟ لا أحد ؟ لا أحد ؟
صاح الخدم في مؤمن بسخرية وقسوة :
— بل أنت ! أنت ! أنت !
ثم تحولت لهجتهم إل لهجة خضوع وضعة :
— أنت ، يا سيدي . أنت ، يا سيدي .
وبعد برهة صمت سألوا :
— بما تأمر ؟
استرد مؤمن سيطرته على الموقف :
— تريدون أن أحكم ؟
ورد عليه الخدم :
— بما يريد قلبك ، بما يرضاه عقلك ، بما ثراه صوابا ، يا سيدي .
خيمت برهة صمت ، ثم استطرد الخدم يقولون :
بـ اشفق علينا ، ومر ، فمنعنا نطيع وننفذ .
— أمر غريب ، تريدون أن أحكمكم ؟
حفي بعض الخدم جباههم :
بـ نحن نحني الجباه . نخض الطرف ، ونركع .
وركع البعض .
— الزمام في يدي ، إذن ؟
— أجل ، الحبل حول أعناقنا مزموم . كُتِبَ علينا الخضوع .
خيمت برهة صمت ، بددها مؤمن صائحا في سورة من الغضب الهائل :
— إذن ، اخرجوا ! هيا ، اخرجوا عن وجهي !

هرول الخدم نحو الباب . وتبوا عنأطاده ملتفتين إلى الخلف في وجل
مشوب بالحبث ، فصاح فيهم مؤمن من جديد بصوت هادر :
— اخرجوا !!
أطبقت الظلمة تماما .

— ١٢ —

كان شاطئ البحر هادئاً مقفراً ، يخيم عليه صمت لا يعكسه سوى صوت
الأمواج يتعالى من الأغوار رتيلاً مبهماً .
على صخرة عالية في المؤخرة ، بدا شبح رجل مقنّع يحمل على كتفه
بنادقية . تنأهى من بعيد صفير مديد خافت ، كما لو كان نداء متفقاً عليه .
أجاب الشبح المقنّع على الصخرة بصفير مماثل .
على جانب من الشاطئ المقفر وقف جراب الرأى وأبو الخيرات على
أهبة الانتظار .
سأل جراب الرأى بصوت يكاد يكون همساً :

— أين هم ؟

أجاب أبو الخيرات :

— فى كل مكان .

سأل الأول :

— كم عدد بنادقنا ؟

— اطمئن . كثيرة .

— أين القارب ؟

— خلف الصخرة ، لا يبين من هنا . أصدقك القول أنه شيء لم تر عين مثله من قبل . مخيف !

— كيف الوصول إليه ؟

— عليه أن يجرى على الرمال في المنطقة المكشوفة ، حوالى عشرين متراً ، في ضوء القمر ، حتى الصخرة . لا يمكن لرجاصهم أن يطلوه هناك . نعتت بومه .

قال جراب الرأى لزميله بصوت غامض :

— كن يقظاً .

— أصبى على الزناد دائماً .

أخرج الخادم الأول خنجرأ من غمده :

— سنأكل ، وسنشرب . رأيت اليوم تحت شجرة جرداء ثلاثة غربان حمراء تلقا جى ، وفتش جثة صفراء : عصفورا أردته حصاة . رأيتها تلقاً المينين . مزقت منها لها الحديدية الصدر المخصب بالدماء بحثاً عن القلب الصغير ، ثم عن أشهى ما فى الجثة الصفراء ، الطحال والأمعاء .

استفسر الخادم الثانى فى قلق :

— أصبح أن الحرب ستنتهى قريباً ، وأن الصلح سيوقع فى لوزان ؟
— ماذا يقلقك فى هذا ؟ ستبدأ حرب جديدة هنا أو هناك ، فى أى مكان ، والأمر سياتى .

شحن خنجره ، وأردف يقول باللهجة العارف للامور :

— هذا مؤكّد فى كل زمان .

لمح خنجره إذ رفعه فى ضوء القمر . هو رأسه واثقاً بما يقول :

— ستمتع عصفير كثيرة ، بل نسور وحدآن ، وتمتلى الوديان بالجيف .
قال أبو الخيرات وقد الشرح صدره :

— ستمتلى بطوننا ، ونحيا فى أمان .

بعد برهة قال جراب الرأى فى صوت رزين . كان كمن يعلن نبوءة ،
رؤيا كابوسية ، حلما مهولا من أحلام البشر القدامى :

— رأيت الجراد يغطى الأفق ، يظلم الشيطان ، يحط على الزرع . والخزان
لم يقو على كبت غرائزه فثار ، واكتسح أمامه الحظام والاشلاء .
استفسر الخادم الثانى الأمر بلهفة :

— رأيتها تطفو على الأمواج ؟

هن الخادم الاول رأسه بالإيجاب ، ومضى فى روايته :

— الأمواج السود آتية . رأيتها تحجب الأفق . تقتلع البيوت ، وتغرق
الوديان .

أخفض صوته ، كمن يدلى بأسرار خطيرة :

— والناس تفر أمامها نحونا ، كالجرذان . النظر ؟

امتلاء الشاطئ بحشود من الناس المذعورة تجرى وتتدافع متزاحمة
كما لو كانت مطاردة بخراب مهول ، تولول وتنظر خلفها ، وتتخبط ، وتفر
مبتعدة .

ثم تخففت الجلبة ، وعم الصمت المطبق من جديد .

نعقت البومة .

ثم خيم الصمت من جديد .

استطرد الخادم الاول يقول :

— أرايت ؟ الخير آت . الخير آت . الدنيا بخير ، طامسا الطوفان آت .
الطوفان آت والدمار .

جذب الخادم الاول زميله من ذراعه ، ومضيا مبتعدين - يتجازان
أطراف الحديث ، فلقد كانت ليهما بعض الأعمال التهديدية عليهما أن
ينجزاها .

— ١٣ —

انبطح منور القنبر على رمال الشاطئ الضفراء .
أقبل مؤمن يجذب نواراة من يدها برفق . كانت تحمل في يدها الأخرى
صرة ثياب .

بدا عليها التردد .

قالت :

— أليس الأفضل أن نذهب إليهم ونسوى الأمر ؟

— هذا صعب . انهم يشغلون مناصب قوية .

قالت نادمة :

— أرايت ؟ أنا العقبة .

— لو كان الأمر سهلا لما كان للرحلة كل هذه الأهمية . لا تخش شيئا .

أمور مثل هذه لعب أطفال بالنسبة لي .

ظل ضميرها يؤنبها :

— اذهب وحدك . لا تخش على :

التفت إليهما مؤمن ، وقال بلهجة آمرة :

— سئوئين ، وتكتمين أنفاسك ، وتجهرين . سنجتاز نور القمر إلى
الظلمة . هناك الأمان .

استطرد مهووناً :

— سيكون كل هذا ذكرى طريفة عندما نصل إلى القارب .
توقفت نواردة محفلة :

— قل لي ، هل هو صواب هذا الذي نفعله ؟ . . أحس بقبضة
من الجرائيت تمصر قلبي .

انقبض صدره لحظة . ثم قال كما لو كان ينفض عن خياله شيئاً :

— انسى كل شيء . يبدو كما لو كانت كل السحب قد مضت وولت .

أمسكت نواردة بيده بغتة ، وقد ارتسم على وجهها الذعر .

سألها بصوت متوتر :

— ما بك ؟

تهتت نواردة :

— لا أدري . مُخَيَّل إلى ...

ابتعد عنها مؤمن . أجال بعمره في أرجاء المسكان منقباً .

جرت نواردة ، والنصقت بكتفه :

— لا أبتعد عنى .

التفت إليها ، وربت على خدها :

قال لها مبدداً مخاوفها :

— لم يحدث شيء . أنا بجوارك . إنه صمت القيور .

ارتفعت نواردة لسماع الكلمة :

— لا .. لا تنهس بها !

استدركت . استجمعت هدومها :

— ساعني . ليس من السهل على امراء مثلى أن تحتفظ بثباتها في ليلة كهذه .

— الذنب ذنبى لم تخافنى لذل هذه المواقف .

— ولا أنت ، أيها المخلوق الوديع النبيل .

تهدت نواره ، وارتعشت شفتاها :

— كم سيكون الامر جميلا أن نبدأ كل شيء من جديد ، أن نستعيد أناساً آخرين .

أغضت عينيها . رفعت رأسها إلى السماء . تطاير شعرها مع التيارات

البحر :

— وددتُ أن أصبحو ذات صباح وقد نسيت من أنا ، وأيامي كلها ، ما بعد

منها وما دنا . وددت أن أصبحو وقد نسيت كل من يذكرني ، كل من يلوك سمقي ويحمرني .

ملأت صدرها بالهواء الرطب . فتحت عيناها . انعكست الامواج

البيضاء فيهما . ثم عادت وأطبقت جفنيها البنفسجين ، وراحت في صلواتها :

— آه لو أصبحو ذات يوم وقد نسيتهم أنا . وددت أن أصبحو ذات صباح

وقد بدأت كل شيء من جديد . تملك الاوراق ما كنت أمزقها . ذلك الباب

ما كنت أقربه ، ولا أنطالع إليه ، حتى من بعيد .

ربت مؤمن على شعرها . أخذ يدها برفق ، وجلسا على الأرض

متقاربين .

قال لها :

— أصبحنا شخصين جديدين من هذه اللحظة . ألا ترين ؟ بعد كل الذي

حدث عوالم جديدة انفتحت . نور جديد أضاء ، ورأينا الحياة لأول مرة معاً ، معاً . ألا يعني كل ذلك شيئاً بالنسبة إليك ؟

لم تستطع نواردة أن تجاريه في تفاوله :

— لكن ثمة ظلاً بقي في هذه الأنوار .

— اضربني أوهامك . لم تعد تنفعنا الآن . اننا نرحل ونتركها .

أجال بصره حوله ، ومضى يقول :

— وداعاً ، أيتها الكلمات الجوفاء ، أيتها السمخات والاكاذيب . وداعاً .

أيتها الأفكار العظيمة ، أيتها النعمون التي تحقق في الظلمات ، أيتها الهمسات

التي تبعث الرعدة في الأوصال ، أيتها الشبهات المختنقة في السرايب .

وداعاً ، أيتها الأوهام والخيالات ، أيتها القبلات المسمومة ، أيتها العطور

المجرمة المسكرة ، أيتها الكلى المزيفة . وداعاً . وداعاً .

بعد برهة من الصمت تطلعت نواردة إليه بنظرات متوسلة :

— سؤال أخير ، وانتفري لي . هل لي الحق في أن أقبلك ؟

— فعلنا الخير ، ولم نؤذ أحداً . العالم كله لنا .

قالت نواردة شاردة اللب :

— لا أدرى . في أعماقي شبح يعترض طريقى .

— المستويات خلفناها وراءنا . لنرحل . .

ثم صاح فيها :

— أسمعيني !

تمالك هدوءه :

— صدقيني . الحقيقة الوحيدة الآن حبيبا .

زعقت بومة . مزق صوتها السكون .

التصقت الاخى بأخيها ، وتشبثت به :

— أين سبذهب ، يا مؤمن ؟

— هناك ، إلى الشاطئ الآخر ، عبر البحر الأزرق ، حيث كانت الجنة

يوماً ما .

— هل سبجده الجنة ، نحن أيضاً ؟

— أنا وجدتها في عينيك ، في صوتك ، في عبير شعرك ...

— أسكت . لا تتحدث هكذا . لم تصبح سادة بعد . .. البنادق لا زالت

في طريقنا .

قال مؤمن بانفعال :

— ستون متراً تفصلنا عن حياتنا الجديدة . أريد شيئاً واحداً في هذه

اللحظة : أن أحيا ، معك ، إلى جوارك .

انخفض صوته إلى حد الهمس :

— وإلى الأبد .

نخيمت برهة صمت .

— أتعرف ماذا أقول لنفسي ؟ المحبون دائماً على حق . عندنى أنك لن

تتركني ، يا مؤمن .

— سنبقى مخبأً بين الأشجار ، ونحيا في صمت ، مثل شراكتين . لن

يكون لنا سوى حبنا .

— لن يُطَّالبَ منك أن تضرب ، ولا من الآخرين أن يضربوك .

هم مؤمن أن يقبلها .
دوت في سكون الليل طلاقة لا يُعْرِفُ مصدرها .
خمر صريعاً بين ذراعي أخته . تلوى ألماً ، وندت عنه آهة مكتومة .
أشيب أصابه في صدره ، كما لو كان يريد أن ينتزع الرصاصة من ضلوعه .

دخل الخدم . وتجمعوا في أحد الأركان يرقبون ما يحدث .
صرخت نواردة :

الدعاء ، الدعاء من جديد !
شقت قبيح مؤمن عند الصدر ، وانسكبت عليه تحاول أن تسدى له
العون في لحظة الأخيرة .
بكت بحرقة .

دخل الأب . وقف بعيداً يتابع ما يدور في صمت .
خاض الضوء من الوجود .

لطمت نواردة ، ولولت ، وركعت تخاطب الجنة الحبيبة بحرقة وألم :
— أين أنت ؟ لماذا ابتعدتني ؟ كنتُ بلا حب وحيدة ، ثم أصبحت لي ،
وها أنت بين يدي جثة هامدة . كنتُ أحياء في عزلي قاتعة ، وها أنا
أحياء معك إلى الأبد في الأسمى والنعيم .

تناولت وجهه الشاحب بين راحتها في حنان :
— ألا تسمعي ؟ أن نذهب إلى الشاطئ الآخر ؟ مؤمن ؟ أليسيت
الزهور ، والغباء الذي سنبذيه ؟
خيمت برهة من الصمت الثقيل .

وضعت نواردة رأس مؤمن في حجرها . ربّلت على شعره برفق .
غمرهما ضوء القمر . وبدأ الوجود ، كما لو كان قد خلا ممن عداهما .
مضت نواردة ترفى حبيبها :

— الجنة موجودة . لا تنس ذلك . أعتقدنا أنها أسطورة ، لكننا أصبحنا
نعرف جيدا أنها الحقيقة .
تهدت :

— فقدناها . كنا نطلب الكثير ، ولا يجب أن يطلب المرء الكثير قط .
انحنيت . طبعنت على جبينه البارد قبلة طويلة .

السدل على كتفها شعرها الطويل ، غمر وجهيهما ، كأمواج سوداء
تهدر من شلال شاهق الارتفاع .

خلعت من أحبيها خاتمها . وضعت في أصبع الرجل الذي كان قلبه عامرا
بالأمل منذ بضع لحظات لحسب .

قالت له بصوت مرتجف :

— يا حبيبي ، مهما كانت الحياة بعد الموت ، أتمنى لك أطيب التمنيات في عيد
ميلادك .

رفعت رأسها . بدت متصلة النظرات ، جامدة الملامح ، وقد جفت
الدموع في مآفئها ، ومثلت التجاعيد وجهها . ثم فجأة أيضا ، شعرت بأن
السنين قد تراكت عليها ، وتقدم بها العمر .

خيمت برهة صمت ثقيل .

كان هدير للبحر يحكي من بعيد قصة الرباط الأبدى بين الموح والصفوح ،
وذرات الرمال التي ترقد على الشط تحلم بماضيها ، وبملاقة ضارية أحالتها إلى
رمال . محظوظة هي الأمواج . لانعرف خطيئة . لاننتظر موتا ، ولا قاتلا
تتوقع ، بل زرقعة أبدية ، وقبيلات الرياح .

— ١٤ —

قال الخادم الأول بصوت خفيض :
— لم يحسن التصرف . جرى في النور . رأوه ، وضربوه .
بصق الخادم الثاني ، وعلق على ذلك بازدياء :
— كان يريد أن ير حل ، هيه ؟ ! بأى قارب ، لا أعرف ! رومانتيكى
حالم . نواح كثير وعزيمة واهنة .
— والآخرى تعشق كل ما هو قديم . هذا نوع من الحرب أيضا .

خطا الالب بضع خطوات مقتربا .
رفعت نواردة رأسها . رآته .
أوقف .
تطلعت إليه بعينين دامعتين .
قالت له بصوته انطمأت منه الحياة :
— ماذا تطالب منا ؟ ليس لدينا ما نعطيه .
هن الالب كنفية . راجاب بصوت ثقيل ، كما لو كان يأتي من جيب سميق :

— ماذا بقي كي أطلب ؟ أنا لا أطلب شيئاً . لم أكن أطلب شيئاً على الإطلاق . حياتي بدأت في حفرة من الطين ، وشئ يدوي من حولي . شئ أخبروني فيما بعد أنه طلاقات بنادق ، لمكنني غير قادر على أن أتذكر كيف وُجدت ، وما هو الدور الذي أعبه . أشعر أحياناً أنني على وشك أن أكتشف أمراً جلالاً ، ثم فجأة يظلم كل شئ من حولي ، وأتخذ في التصرف كأنني في غيبوبة . وقد أحسست الليلة أن هناك شيئاً ينتظرني عند نهاية الطريق ، لمكنني تبيننت كشأني في كل مرة أنني كنت واحداً .

— كنت على حق . ها أنت تذهب القنديل انطفأ .

طلع القمر من وراء السحب . تركز نوره الفضي على جثة مؤمن المسجاة على الرمال .

نظر إليها الأب ، وتنهد :

— بل هزمت مرة أخرى . انطفأ القنديل ، لكن الظلمة أضاعت . خيمت برهة صمت .

استطرد الأب مشيراً إلى الجثة ، مدافعاً عن نفسه :

— رأيته ماذا فعل بي ؟ أبي قتاني !

سرح بصرها بعيداً . قالت شاردة اللب :

— كان يجب أن يموت ، قبل أن يندفع لساء أخريات .

هز الأب رأسه :

— كان يعشق لعبة الموت حتى العبادة . كان يعلم جيداً أن الموت لا يموت .

أقبل رئيس الخدم ، تمسك على بطنه سلسلة ساعة ذهبية واضحة للعيان

مثل سيده .

أنحنى للأب .

سأل :

— والتقارب ، ياسيدي ، ماذا تفعل به ؟

أخرج الأب ساعته من جيبه ، ونظر إليها :

— أوشكت اللحظة أن تحين .

ثم صاح بالهجة آمرة ، كما لو كان يريد أن يستمد الشجاعة من صوته :

— سطموه ، حتى لا تبقى وسيدات الانجاة .

انصرف رئيس الخدم ، بعد أن أدى التحية للأب .

اقترب الأب من نواره ، ركع على قدميه إلى جوارها .

بعد برهة صمت ربت على كتفها :

— تريدان أن تكونا معاً ، كما كنتما في الحياة ، هيها وأنا ؟

انخرط في بكاء خفيض :

— أهون عليك ؟ أنت سلواى وكفى . ادخرتك لأخرتى . هذا الذى

يفسأنى ويدفنى ، أيتها الزوجة التى تبخس حق نفسها ، هيها ، معى إلى

البيت ، يا حبيبتي .

ذاب الألم فى قلب نواره ، ولان حديثها :

— أيها المسكين ، أنحنى إلى هذا الحد ؟

تلاشت شراسة المعجوز وحمافته . كست نفسها رداة جذابة وسامة

مفجعة .

قال :

— سيكون مؤمن بانتظارنا هناك ، وسنبداً كل شيء من جديد ، فها هو
قد أصبح منا . إنه يتأرجح في قارورة راغباً أن يموت ولا يموت . تطلعي
إلى المستقبل بتفاؤل ، فكل شيء يتفتح بعد خمود ، وكل كفاح مضمّن يبدأ
من جديد .

أخذ العجوز بذراع المرأة . انفضها برفق :

— هيا يا ابنتي نعود إلى البيت ، نعد حساء للعشاء .

استجابت نواردة ، ونهضت بتثاقل :

— وأجهز لك ماء دافئاً أغسل به قدميك ، وأضعك في سريرك .

أقفلت راجعة مع الأب بخطى بطيئة :

— وأحكم الغطاء حولك ، فالبرد قاس ، يا عجوزي ، والشتاء يطرق
الابواب .

وضع الأب ذراعه على كتف ابنته ، واستند إليها ، وقد ناء الإثنان
بحمل السنين .

أقبل عنقرة . خطا بضع خطوات في اتجاه الأب ، كما لو كان يريد اللحاق به .
ثم توقفت ورفع صوته مخاطباً إياه ، وقد أوشك أن يغيب عن الأنظار :
— سيدي . . .

توقفت الأب . التفت نحو من يناديه .

سأله الخادم مشيراً إلى جثة مؤمن الملقاة على الرمال :

— هل أنلو عليه صلاة ، يا سيدي ؟

أجاب الأب مسكتكراً بصوت أجش :
— وهل نُخلِقت الصلوات للآبقين ، يا رجل ؟ إنه جيل مشمت مرتاب .
صدق الخادم على كلاهه :
— حقاً ، ياسيدى . كانت قتلة شريفة طاهرة لا يستحقها .
مضى الأب وابنته حتى غابا عن العيان .

انقض الخدم على جثة مؤمن كما تنقض النسور الجائمة على جيفة
من الجيف .

مهم

مقدمة في غير موضعها

امتدأ بما فعله أستاذنا توفيق الحكيم في ختام مسرحية «إيزيس» أقول ليست «المرأة والمصباح» مجرد رواية تحكى أحداثا وقعت، بل هي عمل يعكس رؤيا للوجود في مرآة مكسورة، وعلى ضوء مصباح منطفيء أو على أحسن الفروض تتأرجح ذبالة في مهب ريح لا ترحم، ولكن أليس الفن الحديث والأدب الحديث تبعاً له على هذا النحو؟ ألا نجد أن أعمال بيكاسو وبراك وجري والجزار صور في مرآة مكسورة؟ ثم ألا تبدو لوحات روه وكوكوشكا وساذرلاند وندا وسائر التعبيريين أعمالاً في ضوء ذبالة منطفئة يتصاعد منها دخان أسود؟ ولكن ماذا يفتخر من الفن الحديث غير ذلك؟ أن يكون مرآة تعكس صورة الثور الضاري على أنه ملاك رحيم؟ هل الفن الحديث مرآة تبرز ملامح كل منا كما يحب أن يبدو؟ إذا كان الأمر كذلك فيألفها من مضيعة للوقت. إننا نذكر في هذا المقام جان جينيه في مسرحيته «الشرقة» حيث يرى كل من زبائن مأخوذ اسمه «الشرقة» نفسه على ما يهوى، ويحيا أحلام عظيمة زائفة.

تجسكي «المرأة والمصباح» أشجان لإنسان هذه السنوات الخربة التي تجهز قهراً القنابل للدمار وتبني السفن اللافلات إلى الفضاء، ولهذا نلتقي في «المرأة

والمصباح ، بأبٍ يشد إلى الأرض . يريد أن يرى هلاك الأشرار وبقاء
العادلين ، وعندما يطلع الابن لايتورع عن قتله ذلك الأب هو مركز السكون
الأسرى الذى هو صورة مصغرة للسكون الوجودى ، وقد خرج الأب
لينقذ خرافه الضالة ، فاسترد الابنة ، أما الآخر فقد أهلكه .

وقد حاولت أن أنخلص فى « المرأة والمصباح » من السرد الروائى
واستعنت بالأسلوب المسرحى فى رواية قصة . كما انصرفت عن
« الموضوع المحلى » وقد كسرت بوصافى وبسطات اشرفى فى مهب
الريح ، فقادتنى سفيلتى إلى الشمال القمى لأجد فى حياة أشهر مصوريه
أدقار مواش ماثبت خيالانى . وقد زادها مسرح مواطنه أوجست سترنبرج
تأججاً بحواره المزلول الذى لازال يتردد فى أعماقى مختلطاً بحوار الفريد
جارى وهارولد بينتر تحررت . من الحوار الجدلى الذى يقوم على مقارعة
الحجة بالحجة ، ولجأت إلى الحوار اللامنطقى الذى ينضج بالعنف المسيطر
على العلاقات الإنسانية ، استخدمت الكلمات بالأخص لتؤلم لا لتفسر ،
ولتثير القلق الذى ينفثه الشعراء فى قصائدهم .

وأعود إلى الفن الحديث ممثلاً فى أدافوف ويونيسكو وأوديبيرنى
لأشير إلى شرعية تلك التحولات التى تمتلئ بها « المرأة والمصباح » سواء
فى الحوار أو الشخص أو الأحداث . فالأب ورئيس الخدم والرسول
والاستاذ كرم ، ونواره الام ونواره الابنة ونواره العشيقه من متطلبات
النيار الحديث فى الفن والادب ، ومن مكتسباته التى يجب أن يضعها القارىء
موضع الاعتبار .

وأكتفى بأن ألقت النظر إلى أخطر من في الرواية ، وهم الخدم . لأنهم
يكشفون أبعادا خفية في سلوك أسيادهم ، ويستترون وراء العديد من الاقنعة
الواضحة وغير الواضحة . ينفذون إرادة الاب ، ليسكنهم يعملون أيضا
لحساب من يدفع ، وإن اقتضى الامر فهم مستعدون لبيع سيدهم .

والخدم كثيرون في الحياة وفي الطبيعة . انتشارهم في المدن أكثر من
انتشارهم في غيرها . تخدم مثلا على المقاهي ، وأمام دور السينما إذا
ما عرضت أفلاما مشيرة ، وفي المحافل يصفقون ويهللون . أسماؤهم مرصوفة
في كشوف العلاوات والمنح . يتلقون نعائم التقدم بلا عناء ، وليسكنهم
على استعداد لهدم كل تقدم بلا اكتراث في سبيل علبة من السجائر ، أو
شريحة اضافية من الشواء .

صمم الغلاف الفنان حسن سليمان
وقد تم طبع الكتاب في ١٧/١٢/١٩٦٨

مطبعة النهضة
٩٠٢ شارع الوحدة، بيروت

.736
72m

Prima



0686926